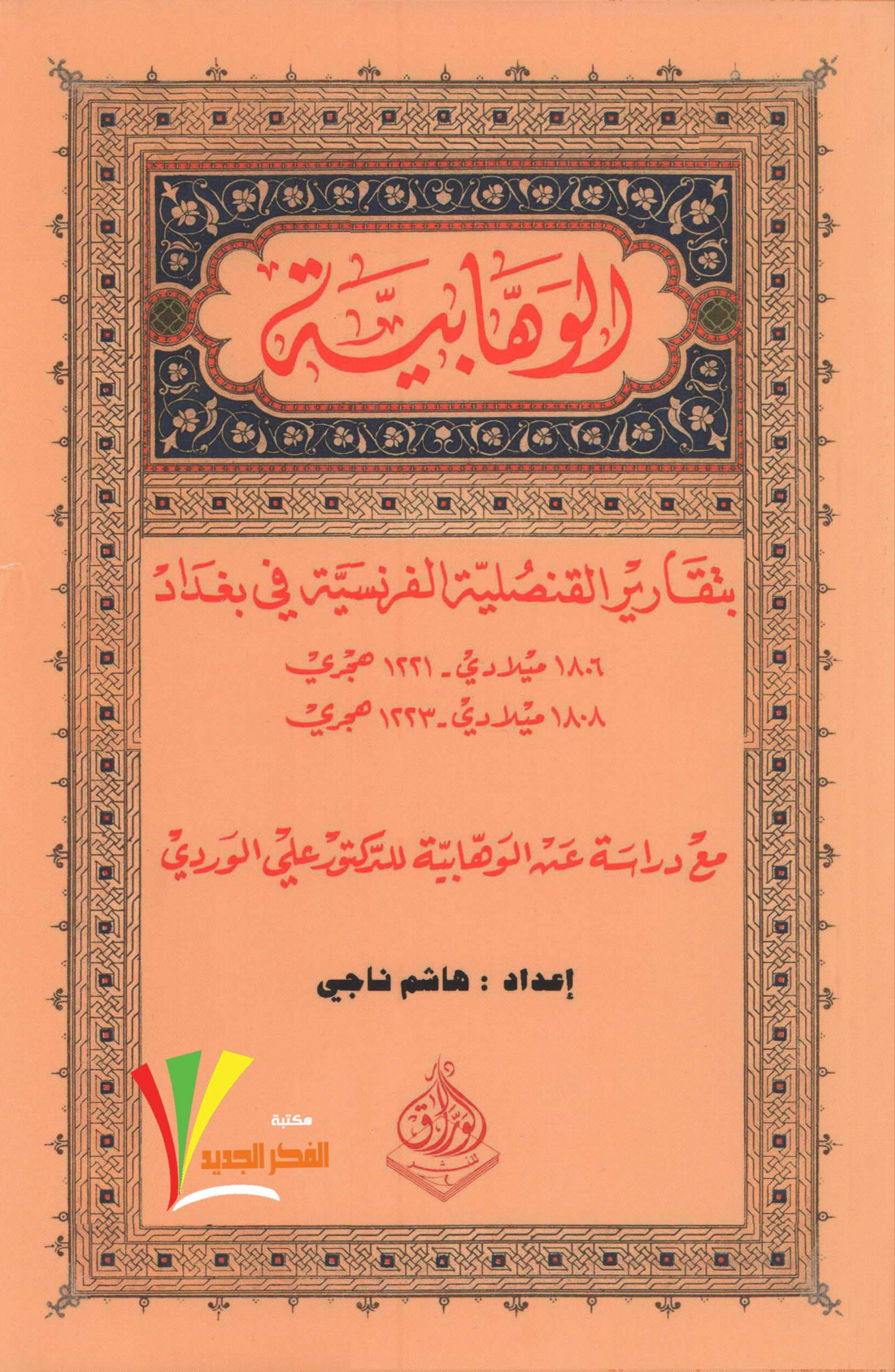


الوهابية

بتقارير القنصلية الفرنسية في بغداد

١٨٠٦ ميلادي - ١٢٢١ هجري

١٨٠٨ ميلادي - ١٢٢٣ هجري

مع دراسة عن الوهابية للدكتور علي الوردي

إعداد : هاشم ناجي

الوراق للنشر

الوهابية
بتقارير القنصلية الفرنسية في بغداد

(1806/ 1221هـ - 1809/ 1224هـ)



* الكتاب: الوهابية بتقارير القنصلية الفرنسية في بغداد 1806م/1221هـ ـ 1809م/1224هـ)
* تقرير القنصل الفرنسي جان ريمون 1806 ـ ترجمة: هدى معوض
* تقرير القنصل الفرنسي جان لوي روسّو ـ 1809 ـ ترجمة: خالد عبد اللطيف حسن
* إعداد ومراجعة وتقديم: هاشم ناجي
* الطبعة الأولى: الورّاق للنشر 2015

* تصميم الغلاف: دار الورّاق

www.alwarrakbooks.com
www.Facebookcom/warrakbooks

ISBN: 978-9933-521-31-8

التوزيع

Alwarrak Publishing Ltd.
26 Eastfields Road
London W3 0AD-UK
Tel: 00442087232775
Fax: 00442087232775
warraklondon@hotmail.com

الفرات للنشر والتوزيع
بيروت ـ الحمرا ـ بناية رسامني ـ طابق سفلي أول
ص.ب 113-6435 بيروت ـ لبنان
هاتف: 00961-1-750054
فاكس: 00961-1-750053
e-mail: info@alfurat.com

شركة بيت الورّاق للنشر والتوزيع المحدودة
العـراق ـ بغـداد ـ شارع المتنبي
تلفون : 009647702749792
009647801347076

شركة دار الورّاق ش.م.م
بيروت ـ الحمرا ـ بناية رسامني ـ طابق سفلي
هاتف: 00961-1-341927
فاكس: 00961-1-750053



الوهابية
بتقارير القنصلية الفرنسية في بغداد

(1806م/ 1221هـ - 1809م/ 1224هـ)

تقرير القنصل الفرنسي في بغداد جان ريمون 1806

تقرير القنصل الفرنسي في بغداد جان بابتيست لوي روسّو 1809

مع دراسة عن الحركة الوهابية
للمرحوم الدكتور علي الوردي

إعداد ومراجعة وتقديم

هاشم ناجي

ترجمة:

هدى معوض

خالد عبد اللطيف حسن






مكتبة
الفكر الجديد

المحتويات

الفصل الأول
الحركة الوهابية
الدكتور علي الوردي

الفصل الثاني
تقرير القنصل الفرنسي في بغداد جان ريمون
1806



الفصل الثالث
تقرير القنصل الفرنسي في بغداد
جان لوي روسّو 1809



تقديم

بقلم: هاشم ناجي

تُعدّ حركة أو دعوة الشيخ محمد عبد الوهاب من أهم الحركات الدينية والسياسية التي ظهرت في المنطقة العربية خلال 300 سنة الماضية، والتي غيّرت مجرى تاريخ المنطقة العربية بل تعدّتها إلى المناطق الإسلامية الأخرى.

لقد نشأ عن هذه الحركة تفاعلات وأحداث اجتماعية واقتصادية وسياسية منها:

أولاً: قيام الدولة السعودية:

لقد قامت الدولة السعودية الأولى في نهاية القرن الثامن عشر الميلادي وقامت الدولة السعودية الثانية في القرن التاسع عشر الميلادي وأخيراً أُقيمت المملكة العربية السعودية في القرن العشرين.

ثانياً: انزياحات إسكانية وهجرات قبلية كبيرة:

لقد حدث ثلاث انزياحات سكانية كبرى في الجزيرة العربية خلال 2000 سنة الماضية أولها كان بسبب الفتوحات الإسلامية، وثانيهما بسبب الحركة القرمطية، والثالثة حركة الشيخ محمد



عبد الوهاب، لقد سببت هذه الحركة الدينية السياسية أكبر عملية انزياح سكاني في المنطقة العربية في العصر الحديث، حيث رحلت قبائل عديدة باتجاه العراق وسورية، مثالاً على ذلك قبائل عنزة وشمر وغيرها بالإضافة إلى قيام هجرات داخل الجزيرة العربية نتيجة الحروب التي نتجت عن هذه الحركة.

ثالثاً: صراعات سياسية واقتصادية:

لقد أسفر الانزياح والهجرة السكّانية للقبائل العربية إلى العراق وسورية عن ظهور صراعات اجتماعية واقتصادية كبيرة في هذين البلدين نتيجة الوضع السكاني الجديد في العراق وسورية. فمن نتائج هذه الصراعات السكانية:

أ ـ الصراع للاستحواذ على مراعي بين القبائل:

ب ـ غزو على الأراضي الزراعية للسكّان المستقرين.

ج ـ استفحال البداوة على حساب الزراعة.

د ـ دخول القبائل المهاجرة في حلبة الصراعات السياسية التي كانت تجري في المدن بين الساعين للسلطة من خلال إدخال القبائل في هذا الصراع.

رابعاً: انتشار التأثيرات الدينية:

أما تأثير أفكار الشيخ محمد بن عبد الوهاب فكانت كبيرة حيث انتشر هذا الفكر الوهابي وترسخ في الجزيرة العربية بشكل أساسي، وثم حدث تطور كبير في انتشار أفكار الشيخ عبد الوهاب في المنطقة العربية والعالم الإسلامي خلال الستين سنة الماضية.



لقد ساعدت الوفرة المالية في الجزيرة العربية في دعم انتشار هذا الفكر وذلك من خلال المراكز الإسلامية والجوامع والمساجد والدعاة التي قام بها أنصار الشيخ عبد الوهاب.

الأهمية التاريخية لدراسة الوثائق الفرنسية:

من المهم جداً أن يحيط الباحث نفسه بجميع المصادر التاريخية من فرنسية وبريطانية وعثمانية وعربية وغيرها لكي تكتمل الصور في فهم التطورات التاريخية التي حدثت، يمكن أن يرى القارىء أن التقارير الفرنسية المترجمة تحمل وصفاً وتعابير بعيدة عن الموضوعية، ولكن لا يعني ذلك إهمال هذه الوثائق بل نختلف مع الوصف ولكن لا يمكن نفي وقوع الحدث.

لقد حرصت أن أضع بين يدي القارىء العربي التقريرين الأصليين بنصهما الأصلي للمحافظة على الأمانة العلمية، وفي الوقت نفسه قمت بوضع هوامش عديدة للتوضيح وتصويب قسمٍ من الأحداث التي ذكرت في هذين التقريرين.

وقد قمت بوضع جزء من دراسة المرحوم الدكتور علي الوردي عن الحركة الوهابية في كتابه لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث. إنَّ أهمية هذه الدراسة تكمن في إعطاء صورة واضحة للقارىء عن الحركة الوهابية من خلال الموضوعية العلمية العالية التي يتميز بها المرحوم الدكتور علي الوردي.



مصادر المراجعة والتعليق

1 ـ عباس العزاوي، **تاريخ العراق بين احتلالين**: ج5 وج6، منشورات الشريف الرضي، قم.

2 ـ عثمان بن عبد الله بن بشر، **عنوان المجد في تاريخ نجد**: مخطوط، الناشر مكتبة الملك عبد العزيز العامة، 2002، الرياض.

3 ـ فوستنفلد، **مشجرات أنساب القبائل والعوائل العربية**، تحقيق ماجد شبّر، ترجمة محمود كبيبو، الورّاق 2014.

4 ـ لونكرك، **أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث**: ترجمة جعفر الخياط، ط1، 1968، بغداد.

5 ـ ماكس فون أوبنهايم، **البدو**: ج1 وج2 ، الطبعة 2004، تحقيق ماجد شبر، ترجمة محمود كبيبو، شركة الوراق للنشر المحدودة، لندن.

6 ـ ماكس أوبنهايم، **رحلة إلى ديار شمر**: الطبعة الأولى 2007، ترجمة محمود كبيبو، شركة الوراق للنشر، لندن.

7 ـ محمد أركون، **تحرير الوعي الإسلامي**: ترجمة هاشم صالح، دار الطليعة، 2011.

8 ـ هانس هالم، **الشيعة**: الطبعة الأولى 2009، ترجمة محمود كبيبو، شركة الوراق للنشر المحدودة، لندن.

9 ـ هانس هالم، **أمبراطورية المهدي وصعود الفاطميين**، الطبعة الأولى 2013، ترجمة: محمود كبيبو، شركة الوراق للنشر المحدودة ـ لندن.



الفصل الأول

الحركـة الوهابيـة

د. علي الوردي




مكتبة
الفكر الجديد

الحركة الوهابية[*]

سُميت الحركة الوهابية بهذا الاسم نسبة إلى مؤسسها الشيخ محمد بن عبد الوهاب[1] وقد وُلد هذا الرجل في «العيينة» من قرى نجد في عام 1703، وكان أبوه قاضي القرية فنشأ في بيئة دينية، وأتمّ دراسته الدينية في مكة والمدينة والبصرة. وقد ظهرت عليه أولى بوادر التجديد الديني عندما كان يدرس في المدينة حيث رأى الناس يستغيثون بقبر النبي ويشفعونه في حاجاتهم فأنكر ذلك عليهم واعتبره شِركاً بالله. وحين جاء إلى البصرة، وشاهد انهماك سكانها في الشفاعة والتوسل بالقبور، أخذ ينتقدهم بعنف ممَّا أثار استياء البعض منهم فأخذوا يضايقونه، ثم طردوه من البصرة، وكاد يموت في الصحراء من العطش.

كان الشيخ يعتقد اعتقاداً جازماً أنَّ مبدأ الشفاعة والتوسل

(*) هذا الفصل ما كتبه علي الوردي في كتابه لمحات اجتماعية:
الجزء الأول: من ص194 ـ 213 ومن ص231 ـ 232.
الجزء الثاني: من ص 30 ـ 34، طبعة الورّاق 2009. [معدّ البحث].

(1) إنَّ الوهابيين أنفسهم لا يرتضون هذا الاسم لهم، فهم يسمون أنفسهم بـ«الموحدين»، وقد جرينا في هذا الكتاب على الاسم الشائع لهم وهو الاسم المستعمل في أكثر المصادر التاريخية.



بالقبور من الأُمور المنافية لعقيدة التوحيد الإسلامية، فالله يقول في كتابه: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾[1]، ويقول كذلك: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾[2]، وفي القرآن آيات أخرى في مثل هذا المعنى إذ هي تحضّ الناس على أن يكون توسلهم إلى الله ودعاؤهم له وحده، فلماذا يخالف المسلمون ما جاء في القرآن إذن!!

كان الشيخ محمد يعتبر الأضرحة التي اعتاد المسلمون على تقديسها وزيارتها هي كالأوثان التي كان أهل الجاهلية يعبدونها من دون الله، فالناس يرجون من المدفونين في تلك الأضرحة أن يتشفعوا لهم عند الله ويقربوهم إليه زلفى، وهذا في نظر الشيخ محمد هو نفسه ما كان أهل الجاهلية يفعلونه تجاه الأوثان.

لقد ملكت هذه الفكرة عقل الشيخ محمد حتى صار لا يرى في الحياة سوى هدف واحد هو إرجاع الناس إلى الفطرة الإسلامية الأولى وهي عبادة الله وحده وترك عبادة الأضرحة. والواقع أنَّه لم يكن أول من فكر بمثل هذه الفكرة، فقد سبقه إليها ابن تيمية قبل خمسة قرون، ولكن الفرق بينهما هو أنَّ ابن تيمية نادى بالفكرة في بيئة حضرية فلم ينجح، بينما نادى محمد بها في بيئة بدوية فنجح نجاحاً عظيماً.

في عام 1730 ذهب الشيخ محمد إلى «حريملة» من قرى نجد وأخذ يعلن دعوته فيها، فتابعه البعض من سكانها بينما عارضه

---

(1) سورة البَقَرَة: الآية 186.

(2) سورة الجنّ: الآية 18.



الآخرون، وبهذا انقسم أهل البلدة إلى فريقين متعاديين، وكاد خصومه يقتلونه لولا هروبه من القرية وذهابه إلى قرية «العيينة» التي ولد فيها، وهناك آزره أميرها عثمان بن حمد وزوّجه بأخته جوهرة.

بدأ الشيخ محمد يطبق مبادئه في تلك القرية عملياً فأمر بقطع الأشجار التي كانت مقدَّسة لدى العامة، وذهب بنفسه يحمل معولاً لقطع الشجرة الرئيسة التي كانت أكثر قدسية من غيرها. والتفت بعدئذٍ إلى ضريح مقدَّس في نجد غاية التقديس هو قبر زيد بن الخطاب الذي قتل هناك أثناء حروب الردة ـ وهو أخو الخليفة الثاني عمر ـ فذهب الشيخ بصحبة ست مئة رجل من أتباعه بغية هدم الضريح، فخرج إليه سكان القرية المجاورة ليحولوا دون مراده فلم يوفقوا، وأخذ الشيخ المعول بيده فهدمه. وقد توقع العوام أنَّه سيصاب بمصيبة أثناء الليل جزاء انتهاكه حرمة الضريح المقدَّس ولكنَّهم أبصروه في الصباح التالي وهو يتمتع بصحة جيدة[1].

التحالف مع ابن سعود:

في عام 1745 اختلف محمد بن عبد الوهاب مع أمير حريملة فخرج منها لاجئاً إلى قرية أخرى هي قرية «الدرعية» التي كان يحكمها الأمير محمد بن سعود. ويشبّه الوهابيون هجرته هذه بهجرة النبي محمد من مكة إلى المدينة.

---

(1) عبد الله فيلبي (**تاريخ نجد وتاريخ الشيخ محمد بن عبد الوهاب السلفية**): ترجمة عمر الديراوي، بيروت بدون تاريخ، ص37.



تحالف الشيخ محمد بن عبد الوهاب مع الأمير محمد بن سعود وتعاهدا على أن يكونا يداً واحدة في نشر الدعوة الجديدة ومكافحة خصومها، وكان ذلك إيذاناً بتحول الدعوة من طورها السلمي إلى طورها الحربي.

أدخل الشيخ محمد في عقول أتباعه مبدأ الجهاد المقدَّس باعتباره أهم الفروض الدينية، وبذا وضع إصبعه على النقطة الحساسة في المجتمع البدوي وهي الغزو والغنيمة، فصارت القبائل تتهافت على الانضمام إلى الدعوة الجديدة، وكان كل نصر تناله الدعوة في غزواتها يزيد من عدد أتباعها ومن حماسهم لها.

وممَّا يجدر ذكره في هذا الصدد أنَّ ما جاءت به الدعوة الجديدة من استنكار لعقيدة الشفاعة وتكفير لأصحابها كان عاملاً مهماً في نجاحها، فهو قد أعطى لأتباعه حجَّة لغزو المخالفين لهم باعتبارهم مشركين تحل دماؤهم وأموالهم ونساؤهم. أضف إلى ذلك أنَّ البدو بطبيعتهم لا يهتمون بعقيدة الشفاعة كما يهتم بها الحضر، فهم لم يتعودوا على الوساطة في حياتهم الاجتماعية، وليس لديهم حكَّام مستبدون كما هو الحال عند الحضر، ولذا فهم يستطيعون أن يفهموا المبدأ الوهابي في استنكار الشفاعة ويستجيبوا له من غير صعوبة. ولعلَّ هذا هو السبب الذي جعل الدعوة الوهابية يسهل انتشارها بين البدو بينما هي من الصعب انتشارها بين الحضر، إنَّ الفرد الحضري الذي اعتاد على الشفاعة في علاقاته مع حكَّامه يصعب عليه أن يستغني عنها في علاقاته مع ربه. يمكن القول بوجه عام إنَّ أكثر



العقائد والطقوس الموجودة لدى العامة هي صدى لعاداتهم وعلاقاتهم الاجتماعية، ثم يأتي رجال الدِّين بعدئذٍ فيؤيدون العامة فيما يعتقدون وما يفعلون.

بين المحاسن والمساوىء:

يقول ابن سند البصري في وصف الحركة الوهابية ـ وكان معاصراً لها تقريباً ـ: «ومن محاسن الوهابيين أنَّهم أماتوا البدع ومحوها. ومن محاسنهم أنَّهم أمنوا البلاد التي ملكوها وصار كل ما كان تحت حكمهم من هذه البراري والقفار يسلكها الرجل وحده على حمار بلا خفر، خصوصاً بين الحرمين الشريفين. ومنعوا من غزو الأعراب بعضهم على بعض، وصار جميع العرب على اختلاف قبائلهم ـ من حضرموت إلى الشام ـ كأنَّهم إخوان أولاد رجل واحد، وهذا بسبب قسوتهم في تأديب القاتل والسارق والناهب إلى أن عدم هذا الشر في زمان ابن سعود، وانتقلت أخلاق الأعراب من التوحش إلى الإنسانية... فكأنَّهم جعلوا تأمين الطرقات ركناً من أركان الدِّين. ويُفهم عقلاً من سياستهم أنَّه إذا فُقد القاتل والسارق والناهب فأي سبب يمنع الناس من الاشتغال بالزراعة أو التجارة أو اقتناء المواشي في البادية المخصبة للتكسُّب من ألبانها وأصوافها وجلودها، وإذا اشتغلوا بالكسب الحلال فلا يسرقون ولا ينهبون ولا يقتلون، فكأنَّ المسألة شبيهة بالدورية ـ أي متى وُجد الأمان ارتفع السارق والقاتل لاشتغالهم بمعاشهم الحلال، ومتى اشتغلوا بالحلال وُجد الأمان، ولكن هذا الدور استمرّ من جهتهم، ولولا ما في الوهابيين من هذه النزعة أعني



نزعة تكفير من عداهم لملكوا جميع بلاد الإسلام وأدخلوهم تحت حكمهم بطوعهم واختيارهم، ولكن بسبب هذه النزعة أبغضتهم الأُمم وتسلَّطت عليهم الدول...»[1].

إنَّ هذا القول الذي جاء به ابن سند هو تحليل اجتماعي لا بأس به، ولكنَّنا نستطيع مناقشته من ناحيتين: الأولى أنَّه اعتبر نزعة التكفير لدى الوهابيين من أسباب فشلهم وبغض الأُمم لهم، وقد نسي أنَّ هذه النزعة هي التي أعطتهم الحجَّة المشروعة لقتال المخالفين لهم ـ كما أشرنا إليه آنفاً ـ ولولاها لما تهافتت القبائل البدوية على الدخول في الدعوة وأبدت فيها ذلك الحماس المنقطع النظير.

ومن الناحية الثانية يقول ابن سند إنَّ قسوة الوهابيين في تأديب الناهب والقاتل هي التي أمّنت الطرق في الصحراء، وهذا رأي لا يخلو من وجاهة ولكنَّنا مع ذلك نستطيع أن نقول إنَّ القسوة في التأديب لا تكفي وحدها في هذا الشأن، فالبدو الذين قامت ثقافتهم الاجتماعية على الغزو والنهب منذ قديم الزمان لا يمكن أن يتركوا ذلك ما لم يجدوا مجالاً آخر يعوضهم عنه على وجه من الوجوه.

الواقع أنَّ الدعوة الوهابية أشغلت البدو بغزو أوسع نطاقاً وأكثر غُنماً ممَّا كانوا قد اعتادوا عليه من قبل، إنَّها فتحت أمامهم المجال لغزو البلاد المجاورة بدلاً من غزو بعضهم بعضاً، فانثالوا

(1) عثمان بن سند البصري، **(مطالع السعود)**، اختصار أمين الحلواني، القاهرة 1371هـ، ص81 ـ 82.



على تلك البلاد يغنمون منها ما لم يكونوا يحلمون به في غزواتهم السابقة، وذلك بالإضافة إلى ما سوف يفوزون به من غنائم كبرى في جنَّة الفردوس.

إنَّ البدو بوجه عام لا يمكن أن يتركوا عادة النهب والغزو ما داموا بدواً، إنَّما تتحول تلك العادة عندهم من صورة إلى أخرى!.

أثر الدعوة في العراق:

كان الأمير محمد بن سعود قد توفي في عام 1765 فخلفه على الإمارة ابنه الأكبر عبد العزيز، وقد سار هذا على سيرة أبيه في التحالف والتعاون مع الشيخ محمد بن عبد الوهاب لنشر الدعوة الجديدة بالسيف، ونال في هذا السبيل انتصارات عديدة جعلته سيد الصحراء.

ومنذ عام 1790 أخذ الخطر الوهابي يهدد العراق، فقد ظهرت على الحدود من ناحية الصحراء جماعات وهابية وسمت إبلها بشارات بارزة وهي تحمل رقاعاً دينية غريبة، وصارت تغزو مراعي الظفير والمنتفق والشامية. وكذلك أخذ الدعاة الوهابيون يتسللون إلى العراق يحاولون نشر الدعوة الجديدة في أوساط العشائر والمدن، فكانوا يرتادون مضائف الشيوخ في الفرات ليخطبوا فيها ويستغلوا العداء الموجود لدى العشائر ضد الحكومة العثمانية ووالي بغداد[1].

---

(1) ستيفن همسلي لونكريك (**أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث**)، ترجمة جعفر خياط، بغداد، 1962، ص211.



وفي المدن بدأت الدعاية الوهابية تنتشر هنا وهناك فتؤثر في بعض الأفراد لا سيَّما في رجال الدِّين السنيين، وأخذ الجدل يظهر بينهم فمنهم من وجدوا في الدعوة الوهابية تنقية للإسلام من البدع المستحدثة وعودة إلى سُنَّة السلف الصالح فحبذوها، ومنهم من وجدوا فيها إنكاراً لفضل الأولياء وكراماتهم فشجبوها.

يحدثنا المؤرخ الموصلي ياسين أفندي العمري عن أحد القضاة في أيامه أنَّه كان مجاهراً بعقيدته «السلفية» وهو ملا محمد بن ملا أحمد الموصلي المعروف بابن الكولة، وقد كان هذا الرجل قاضياً في ديار بكر ثم نُقل إلى بغداد في عام 1794، وعند مروره بالموصل في طريقه إلى مقر عمله الجديد أخذ يرتاد ديوان آل الجليلي فيها وكان لا يتكتم في الإنكار على الأولياء كالشيخ عبد القادر الكيلاني والشيخ محيي الدِّين بن عربي، وكان يقول: إنَّه لو حصل بيده صندوق الشيخ عبد القادر لأوقده بالنَّار وغلى عليه قهوة. ويعلق ياسين العمري على ذلك قائلاً بأنَّ هذا القاضي إذا ذهب إلى بغداد فسيطرده حاميها الشيخ عبد القادر أما إذا سار إلى الروم فسوف يتلقاه الشيخ محيي الدِّين وربَّما قتله أو أعاده إلى فقره وضعفه. وقد وقع ما تنبأ به ياسين العمري فعلاً، إذ لم يستقر القاضي في بغداد سوى شهرين، ثم نفاه منها واليها سليمان باشا، «فخرج منها خائفاً يترقب... وتوجه إلى بلاد الروم وقد وهنت دعوته وضعفت همته»[1].

---

(1) ياسين العمري (**غرائب الأثر في حوادث ربع القرن الثالث عشر**)، الموصل، 1940، ص35 ـ 36.



بداية العداء مع الدولة:

في عام 1796 وردت الأخبار إلى بغداد أنَّ الأمير عبد العزيز بن سعود استولى على منطقة الأحساء التي تتاخم العراق من الناحية الجنوبية، واحتل القطيف والعقير حتى وصل ساحل الخليج، وأشيع عنه أنَّه عند احتلاله تلك المنطقة قتل نحو مئتين من العلماء فيها[1]. ومن الجانب الآخر أخذ ابن سعود يهدد طريق الحج ممَّا جعل شريف مكة يكتب إلى السلطان يستغيث به، فأرسل هذا إلى والي بغداد سليمان باشا الكبير يأمره أن يسير بقواته «لتأديب العصاة».

يبدو أنَّ الوالي سليمان باشا كان يومذاك قد أنهكته الشيخوخة، ويُقال إنَّه كان قُبيل ذلك كتب إلى السلطان يستعفي من الحكم لضعفه عنه فلم يقبل السلطان منه ذلك. واضطر الوالي في عام 1797 أن يكلّف ثويني شيخ المنتفق ـ بعد أن صالحه واسترضاه ـ بالمسير إلى حرب الوهابيين وأمر أن يلتحق به حملة البنادق من جند البصرة وهم «البلوج» مع خمس قطع من المدافع. وسار ثويني نحو الأحساء مع جمع من عشائر المنتفق وعقيل والظفير وبنيَ خالد وغيرهم. ولكنَّه عند وصوله مع قواته إلى عين الشيبك هجم عليه في خيمته عبد زنجي اسمه «طعيس» فأغمد حربته في صدره وهو يهتف «الله أكبر!».

لم يكد ينتشر خبر موت ثويني في جموع العشائر التي كانت معه حتى شاع فيها الذعر وتفرقت شذر مذر، وانتهز الوهابيون

---

(1) عباس العزاوي (**تاريخ العراق بين احتلالين**)، بغداد، 1949، ج6 ص121.



الفرصة فانثالوا عليها يقتلون وينهبون فغنموا منها المدافع والقنابل كما غنموا شيئاً كثيراً من الإبل والغنم والزاد والمتاع.

فوجىء الوالي سليمان باشا بفداحة هذه الضربة التي لم يكن يتوقعها ولعلَّه كان يظن أنَّ الحركة الوهابية أمرها هين لا يحتاج قمعها إلى كبير عناء، ثم تبين له أنَّها أعظم ممَّا كان يظن.

ولم تمض على تلك الهزيمة سوى أشهر معدودة حتى أغار سعود بن عبد العزيز على قرية «أم العباس» قرب سوق الشيوخ فقتل من سكانها عدداً كبيراً، ثم أغار بعدئذٍ على العين المعروفة باسم «الأبيض» قرب السماوة، وكانت قد اجتمعت فيها عشائر عراقية كثيرة كشمر والظفير وآل بعيج والزقاريط، فدهمهم في بيوتهم وغنم أكثر ما لديهم من إبل ومتاع، كما قتل عدة رجال من فرسانهم كان منهم مطلق بن محمد الجربا رئيس شمر[1].

حملة الأحساء:

اهتم الوالي بالأمر فأعد حملة كبيرة بقيادة الكهية[2] علي باشا للزحف على الوهابيين. وقد أمضى علي باشا صيف 1798 كله في إعداد الحملة فحشد فيها خمسة آلاف انكشاري، ومدافع كثيرة، وقطعات من عشائر عقيل والعبيد

---

(1) عباس العزاوي، **تاريخ العراق بين احتلالين**، ج6 ص123 ـ 126.

(2) الكهية لفظة مختزلة عن «الكتخذاء» الفارسية وكانت في عهد المماليك تعني معاون الوالي ومنفذ أوامره وقائد قواته، وكان هذا منصباً كبيراً في تلك الأيام يلي منصب الوالي في الأهمية. وقد تأتي لفظة «الكهية» في اللهجة العراقية أحياناً بصورة «الكخية» و«الچخية».



وشمر والمنتفق وقشعم والظفير وغيرهم، كما استأجر خمسة آلاف بندقي من النجادة، وحين وصل الزبير سار معه الكثير من أهاليها.

إنَّها كانت حملة ضخمة حتى قيل إنَّها كانت تضم ثمانية عشر ألف فرس وعشرة آلاف بعير، ولكن ضخامتها هذه لم تنفعها في مسير الصحراء وربَّما كانت وبالاً عليها. وعندما وصلت الحملة إلى قلعتي «الهفوف» و«المبرز» ظهر الفشل عليها، فقد عجزت المدافع عن هدم أسوار القلعتين، فاستعيض عنها بالمعاول من غير جدوى، وبدأت الأباعر تهزل وينتشر فيها الموت، وضجّ الجنود سأماً، وصار الكثير منهم ينادون بضرورة العودة وعدم فائدة الاستمرار في القتال[1].

وفي هذه الحالة الحرجة وصلت إلى علي باشا رسالة من سعود يطلب فيها الصلح ننقلها فيما يلي بما هي عليه من أسلوب شبه عامي:

«من سعود العبد العزيز إلى علي، أما بعد ما عرفنا سبب مجيئكم إلى الحسا وعلى أي منوال جئتم، أما أهل الحسا فهم أرفاض ملاعين ونحن جعلناهم مسلمين بالسيف، وهي قرية الآن وليس داخلة في حكم الروم وبعيدة عنكم ولم يحصل منها شيء يسوي تعبكم، ولو أنَّ جميع أهل الحسا وما يليها تؤدِّي لكم دراهماً ما تعادل مصروفاتكم التي عملتموها في هذه السفرة، ولا

---

(1) ستيفن همسلي لونكريك، **أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث**، بغداد 1962، ص213.



يوجد بيننا وبينكم من المضاغنة قبل ذلك إلَّا ثويني فهو كان المعتدي ولقي جزاءه، فالآن مأمولنا المصالحة فهي خير لنا ولكم، والصلح سيد الأحكام».

وبعد مراسلات ومفاوضات وافق الفريقان على الصلح، وعادت الحملة إلى بغداد في شهر يوليو/تموز من عام 1799. ولم يبق سوى إقامة المراسيم لتصديق شروط الصلح، فأرسل ابن سعود رجلاً من عنده إلى بغداد ليمثله في توقيع وثيقة الصلح. وهنا حدثت المهزلة التي ضحكت لها بغداد: فقد زُيّن السراي وزخرفت جدرانه من أجل استقبال الممثل السعودي، ولبس الوالي وحرسه أزهى ما عندهم من ملابس رسمية مزركشة واصطف الجند استعداداً للاستقبال، ولكنَّهم فوجئوا بظهور رجل بدوي ذي أسمال يمشي بخطى سريعة، وعندما دخل هذا الرجل لم يلتفت إلى الباشوات الذين حضروا للاحتفاء به، بل تركهم جانباً وجلس القرفصاء بين يدي الوالي ثم قدَّم وريقة وسخة وأخذ يخطب بلهجته النجدية خطاباً جافاً مهيناً[1].

عودة النزاع:

لم يدم الصلح بين الفريقين طويلاً، إذ لم يمض على توقيع وثيقة الصلح سوى مدة قصيرة حتى حدثت حادثة نسفته نسفاً، وخلاصة الحادثة كما يرويها المؤرخ ياسين العمري هي أنَّ قافلة من أعراب نجد جاءت إلى العراق بحراسة فرسان من

(1) **أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث**، ص214.



أتباع ابن سعود، وقد وصلت القافلة إلى بغداد فباعت ما لديها واشترت ما تحتاج إليه ثم عادت، وعند مرور القافلة بالنجف في طريق عودتها إلى ديارها شاهد الوهابيون شيخ الخزاعل وهو يقبل عتبة المرقد العلوي فهجموا عليه وقتلوه، وإذ ذاك نشبت معركة دامية بين الوهابيين والخزاعل دامت ثلاث ساعات قتل فيها عدد كبير من الفريقين ونهبت أباعر الوهابيين وخيلهم[1].

وعندما علم ابن سعود بحادثة النجف أرسل إلى والي بغداد يطلب منه ديات القتلى ويهدده بنقض العهد الذي بينهما، فأرسل الوالي إليه عبد العزيز بك الشاوي ليفاوضه في الأمر ويعلمه بأنَّ القتلى كانوا من الجانبين إذ قتل الوهابيون من الخزاعل مثلما قتل الخزاعل من الوهابيين، ولكن ابن سعود ضحك عندما كلمه الشاوي بهذا الشأن وقال له: «أما كفى الوزير أنَّنا تاركوه يحكم بغداد؟ والله عن قريب ترى جميع غربي الفرات لنا وشرقيه له». ويروي ابن سند أنَّ عبد العزيز الشاوي أثناء مكوثه بين الوهابيين من أجل المفاوضة تأثر بهم ومال إلى مذهبهم[2].

كان من نتائج فشل المفاوضة أن صار الوهابيون يظهرون هنا وهناك غرب الفرات فيقطعون الطرق ويغيرون على القرى. وفي شهر مايو/أيار من عام 1800 نهبوا قافلة كانت قادمة من الشام،

---

(1) ياسين العمري، **الدر المكنون**، نقلاً عن فؤاد جميل ومصطفى جواد في حاشية كتاب ريجارد كوك، ص53 ـ 54.

(2) عثمان بن سند البصري، المصدر السابق، ص72.



بالقرب من بلدة عانة، وقتلوا عدداً من العانيين[1]. وفي رواية ياسين العمري أنَّهم أغاروا على بلدة عانة نفسها ونهبوا بعض بيوتها وقتلوا أربعين شخصاً من سكانها، ثم أغاروا بعدئذٍ على كبيسة ولكن عشيرة العبيد قاتلتهم فولوا الأدبار[2].

الطاعون وواقعة كربلاء:

في شهر فبراير/ شباط من عام 1802 بدأ ينتشر في بغداد طاعون شديد فاضطر الوالي وحاشيته إلى مغادرة بغداد والذهاب إلى الخالص بغية الابتعاد عن منطقة الوباء. وكان الوالي يومذاك مصاباً بداء المفاصل وقد تجاوز الثمانين من عمره، ولم يكد يستقر به المقام في الخالص حتى وصله نبأ من شيخ المنتفق حمود الثامر يعلمه بأنَّ جيشاً وهابياً قادماً نحو العراق يريد الانتقام لحادثة النجف.

لم يكن الوالي في وضع يؤهله لمجابهة الخطر فترك الأمر للكهية علي باشا، والظاهر أنَّ هذا الكهية لم يكن متحمساً للأمر أو راغباً فيه من أعماق قلبه، فخرج من بغداد ولكنَّه توقف في موقع «الدورة» زاعماً أنَّه ينتظر التحاق العشائر به، وبينما كان على وشك مواصلة السفر من هناك جاء الخبر بالكارثة الرهيبة التي أنزلها الوهابيون في كربلاء. فسار الكهية بقواته مسرعاً غير أنَّه وصل البلدة بعد فوات الأوان[3].

---

(1) يعقوب سركيس، **مباحث عراقية**، بغداد 1948، ج1، ص50.

(2) ياسين العمري، المصدر السابق، ص57.

(3) رسول الكركوكلي، المصدر السابق، ص216 ـ 217.



وقد عثرنا على وصف طريف باللهجة العامية للحالة الاجتماعية التي كانت سائدة في بغداد في تلك الفترة، وتأثير الوباء فيها، كتبه تاجر مسيحي كان يسكن بغداد يومئذٍ اسمه يوسف بن ديمتري المقدسي. وفيما يلي ننقل الوصف بنصه لأهميته:

«ثم إنَّه في رمضان قبل توجه الكروان المذكور الموافق في فبراير/شباط حصلت أمراض وحميات وبائية وموت غفلة في الجانب الآخر من بغداد ما يلي الباب المُسمَّى الشيخ معروف وباب الكاظم، وحصل الوهم في آل بغداد لأنَّه طاعون، وكان يموت من الجانب المذكور كل يوم مقدار من 20 إلى 25 إلى 30 منهم. كثرة وافرة طفروا إلى البرية وما بقي من ذلك الجانب إلّا ما قل، وكان يزيد وينقص، وفي كل ذلك لم يصر شيء عند النصارى ولا اليهود. وفي ثالث يوم العيد في شهر ذي الحجَّة (1216) ظهر خبر أنَّ حضرة واليها سليمان باشا مراده التوجه ثاني يوم، فخافت الناس جداً، وكان هذا الخبر مسموعاً، والتجار المعتبرين من الإسلام خرجوا من بغداد، بعضهم بإذن.. بعضهم بغير إذن، إلى ديرة العرب. والوزير المشار إليه نهار السبت خامس العيد خرج هو ودائرته مع الحرم والمماليك وخزينته جميعاً، ووقع الخوف في قلوب الناس من أنواع شتى. ومن هذه الأسباب تعطلت الأسباب وحصل وقوف حال عظيم واختلال بين الرعية. والوزير بعده بعيد عن بغداد مقدار ساعتين (فقط). وفي 18 ذي الحجَّة ورد من الوهابي عسكر جرار بكثرة وافرة الذي لم يتحقق عددهم إلى مقام الحسين الذي يبعد عن



المشهد مسير يوم... ووقت فتوح الباب دخل العسكر غفلة...»[1].

تفصيل الواقعة:

كانت واقعة كربلاء قد حدثت في يوم 22 أبريل/ نيسان من سنة 1802م، وهو يوافق يوم 18 ذي الحجَّة من سنة 1216هـ. وهذا اليوم كما هو معروف من أعياد الشيعة ويُسمَّى «عيد الغدير»، وقد دخل الوهابيون بلدة كربلاء يومذاك على حين غرة وهم شاهرون سيوفهم يذبحون كل من يلقونهم في طريقهم، ولم يستثنوا منهم الشيوخ والنساء والأطفال[2].

اختلف المؤرخون في عدد القتلى في ذلك اليوم فقدّره بعضهم بثمانية آلاف بينما قدره آخرون بأقل من ذلك، وقيل إنَّ الوهابيين قتلوا عند ضريح الحسين خمسين شخصاً، وفي الصحن خمس مئة. ونهبوا كل شيء وقع في أيديهم ـ من الدور والحوانيت والمرقد المقدَّس ـ وكان أهم ما غنموه هدايا الملوك من النفائس والتحف والأحجار الكريمة التي كانت مخزونة في ضريح الحسين، وحاولوا قلع صفائح الذهب من على الجدران فلم يوفقوا.

ويذكر السائح الهندي ميرزا أبو طالب خان ـ وكان قد زار كربلاء بعد الواقعة ـ أنَّ الناس كانوا يتهمون عمر آغا حاكم البلدة بأنَّه كان متواطئاً مع الوهابيين وقام بمكاتبتهم ولم يعمل شيئاً لحماية البلدة، والثابت أنَّه هرب إلى قرية قريبة من كربلاء أول ما

(1) يعقوب سركيس، المصدر السابق، ج1 ص50 ـ 51.

(2) ستيفن همسلي لونكريك، المصدر السابق، ص215.



علم بالخطر فلم يدافع قط. وقد قتله سليمان باشا أخيراً. ويقول أبو طالب إنَّه لقي بكربلاء عمته المُسمَّاة «كربلاي بكم» ونسوة من حاشيتها وكان الوهابيون قد سلبوهن كل ما يملكن فأعانهن بما استطاع من المعونة. ثم ذكر أبو طالب أنَّ الوهابيين قتلوا خمسة آلاف إنسان وجرحوا عشرة آلاف...[1].

الغارة على النجف:

ترك الوهابيون كربلاء وهم فرحون بنصرهم وغنائمهم، وكانوا يقولون: «لو لم نكن على الحق لما انتصرنا»[2]. فتوجهوا بعدئذٍ نحو النجف بغية أن يفعلوا بها مثلما فعلوا بكربلاء ولكنَّهم لم يوفقوا في ذلك إذ كان أهل النجف قد استعدوا لهم ودافعوا عن بلدتهم دفاعاً مستميتاً. وقد وصف الحادثة أحد الذين شهدوها من سكان النجف فقال: «لما جاء سعود إلى النجف وأحاط بها واشتغل الرمي بالرصاص من الطرفين قُتل من أهل النجف خمسة... وكانت شدة عظيمة على أهل النجف لعلمهم بما صنع بأهالي كربلاء من القتل والنهب، وما فعل بمكة والمدينة، ولذا برزت المخدرات من خدورهن ومعهن العجائز يشجعن المقاتلين ويقفن على كل فرقة فرقةً ويقلن: أما تستحون على نسائكم أن تُهتك وأموالكم أن تنهب وتذهب غيرتكم. واستغاثوا كلهم بأمير المؤمنين عليه السلام وعجّوا إلى الله بالبكاء والعويل، واستجاروا بحامي

(1) أبو طالب خان، **رحلات في آسيا وأوروبا وإفريقيا**، لندن 1810، نقلاً عن ستيفن همسلي لونكريك، المصدر السابق، ص215 (الحاشية).

(2) عثمان بن سند البصري، المصدر السابق، ص74.



الجار فأجارهم فهزم المنافقين وشتت شملهم، وشوهدت ضرباته المعلومة»[1].

وبعد أن انسحب الوهابيون من حول النجف أسرع النجفيون فنقلوا خزانة المرقد الثمينة إلى الكاظمية مخافة أن يعود الوهابيون مرة أخرى فينهبوها كما فعلوا بخزانة الحسين في كربلاء وقد عاد الوهابيون إلى النجف فعلاً ـ ولكن بعد خمس سنوات كما سنأتي إليه في حينه ـ غير أنَّهم لم يحظوا منها بطائل فانسحبوا عنها خائبين كما فعلوا في المرة الأولى.

أثر الواقعة في الشعر:

كان تأثير واقعة كربلاء في الشعب العراقي شديداً ـ ولا سيَّما في الشيعة ـ وقد ظهر أثره في الشعر واضحاً. يقول إبراهيم الوائلي: «... ومن الطبيعي أن تثير هذه الحادثة شعراء الشيعة على الأخص لأنَّها استهدفت المدينة التي تضم مرقد الإمام الحسين بن علي وانتهت بنهب الضريح المقدَّس وهدمه وقتل كثير من المجاورين له وفيهم رجال الدِّين والأطفال والنساء. وقد نظر الشعراء إلى هذه الحادثة كأنَّها تجديد لمأساة الحسين يوم استشهد في كربلاء مع إخوته وأبنائه وأنصاره، فبكوا وسخطوا وأثاروا ونقموا على الوهابيين أشد النقمة وهددوهم وناظروهم وجادلوهم...»[2].

---

(1) جعفر محبوبة، **ماضي النجف وحاضرها**، النجف 1958، ج1، ص326.

(2) إبراهيم الوائلي، **الشعر السياسي العراقي في القرن التاسع عشر**، بغداد 1961، ص123.



وكان من أبرز الشعراء الذين استفزتهم هذه الحادثة الحاج هاشم الكعبي والحاج محمد رضا الأزري، ويليهما الشاعر حسين بن سليمان الحكيم الحلي. وكذلك تأثر بها من الشعراء السُّنَّة عثمان بن سند البصري فقد كان هذا الشاعر يعتبر الوهابيين من أهل الزيغ والضلال ويدعو إلى قتالهم باسم الدِّين لأنَّهم في رأيه مارقون خارجون عن إجماع المسلمين وطاعة السلطان.

وهناك شاعر عراقي آخر سلك تجاه الوهابيين سلوكاً مزدوجاً هو السيد عبد الجليل الطباطبائي من أهل البصرة، فقد كان هذا الشاعر من تجار اللؤلؤ وكثيراً ما كانت أعماله تضطره إلى السفر إلى الكويت والأحساء والبحرين وغيرها من المناطق التي احتلها ابن سعود. فهو ضد الوهابيين حين يكون في البصرة، وهو معهم حين يكون في ديارهم. وعلى أيٍّ حال فهو كان الشاعر العراقي الوحيد الذي مدح الحركة الوهابية وعدها إحياءً للدِّين وتشييداً لأركانه وقمعاً للبدع، وهو في ذلك لا يختلف عن أي شاعر كان يعيش مع السعوديين آنذاك. وقد وفد في عام 1810 على سعود بن عبد العزيز فألقى بين يديه قصيدة يمدحه بها جاء فيها هذان البيتان:

جمعت شتات المكرمات سجية فسدت الورى مجداً وفقتهم فخرا
وظاهرت دين اللّٰه بالبيض والقنا وبرهانك القرآن والسيرة الغرا[1]

أثر الواقعة في إيران:

عندما وصل خبر واقعة كربلاء إلى الشاه فتح علي القاجاري

(1) إبراهيم الوائلي، **الشعر السياسي العراقي في القرن التاسع عشر**، ص141 - 145.



تأثر غاية التأثر، وأمر بإعلان الحداد في أرجاء إيران، ولبس السواد هو وحاشيته، وأقيمت المآتم في كل مكان.

وأرسل الشاه احتجاجاً شديد اللهجة إلى حكومة بغداد ألقى فيه على عاقتها تبعة الواقعة متهماً إيَّاها بالتقصير في أمر الدفاع عن كربلاء مع علمها بنيات الوهابيين. وأوضح الشاه بكلمات جازمة عزمه على تأليف جيش جرار للانتقام من الوهابيين وأنَّه سيهاجم بغداد في طريقه ويحتلها. وقد تسلَّم الوالي سليمان الكبير هذا الإنذار وهو في آخر رمق من حياته فلم يستطع الرد عليه. أمَّا الشاه فقد فوجىء بهجوم على حدوده الشمالية من قبل روسيا فشُغل به عن الانتقام[1].

فتح الحجاز:

توجه الوهابيون بعد واقعة كربلاء نحو فتح الحجاز، وفي شهر نيسان من عام 1803 ـ أي بعد مرور سنة واحدة على واقعة كربلاء ـ استطاعوا أن يفتحوا مكة، وفي ربيع السنة التالية فتحوا المدينة فخربوا المسجد النبوي ونهبوا التحف التي فيه وهي من هدايا ملوك الهند ومصر والسلجوقيين والعثمانيين[2]، وقيل إنَّ سعود أرسلها إلى الهند وباعها هناك[3].

---

(1) أحمد علي الصوفي، **المماليك في العراق**، الموصل 1952، ص82.

(2) عثمان بن سند البصري، المصدر السابق، ص94.

(3) كان من جملة تلك التحف المنهوبة قطعة من الماس لا تقدَّر بثمن اسمها «الكوكب الدري»، غير أنَّها أعيدت إلى موضعها من المسجد من قبل إبراهيم باشا عندما جاء إلى الحجاز لحرب الوهابيين وبقيت هناك حتى الحرب العالمية الأولى ثم اختفت منذ ذلك الحين، وقد اتهم الشريف حسين القائد التركي فخري باشا بسرقتها ـ والله وحده الذي يعلم بما جرى لها!



وفي موسم الحج في عام 1806 بدأ الوهابيون يشجبون بعض الشعائر التي يقوم بها الحجاج ويحاولون منعها باعتبارها بدعاً مخالفة للسنة. وكان الحجاج الآتون من مصر والشام يجلبون معهم محامل مقدَّسة، فانبرى سعود يسأل أميري الحج المصري والشامي متحدياً لهما: «ما هذه العويدات التي تأتون بها وتعظمونها؟!»، فلما أجاباه بأنَّ تلك المحامل إشارة لاجتماع الناس وهي عادة قديمة قال لهما: «لا تفعلوا ذلك بعد هذا العام، وإن أتيتم بها فإنِّي أكسرها». وكذلك اشترط عليهما أن لا يأتيا بالطبول والزمور وغيرها من الأُمور التي جرت العادة عليها.

وفي موسم الحج التالي عندما وصلت قافلة الحجاج القادمة من جهة الشام وتركيا إلى مشارف المدينة أُمرت بأن تعود من حيث أتت، فاحتج على ذلك أمير الحج الشامي عبد الله العظم فلم ينفع احتجاجه شيئاً، واضطر الحجاج الذين أنهكهم السفر طيلة الأسابيع الخمسة الماضية أن يعودوا إلى دمشق دون أن يروا المدينة ومكة[1]. ويُروى أنَّ الوهابيين أحرقوا في تلك السنة المحمل المصري، ونُودي في الناس أن لا يأتي إلى الحرمين من هو حليق الذقن، ومنذ ذلك الحين انقطع المصريون والشاميون عن الحج[2].

النسبية الاجتماعية:

يحدثنا المؤرخ ابن بشر النجدي ـ وكان قد شهد بنفسه حالة

---

(1) عبد الله فيلبي، **تاريخ نجد وتاريخ الشيخ محمد بن عبد الوهاب السلفية**، ترجمة عمر الديراوي، بيروت، بدون تاريخ، ص118.

(2) حافظ وهبة، **جزيرة العرب في القرن العشرين**، القاهرة 1946، ص217.



الضنك والفقر التي كان أهل الدرعية عاصمة الوهابيين يعانونها قبل ظهور دعوتهم ثم انقلاب الحالة إلى العكس من ذلك بعدئذٍ ـ فيقول: «لقد شاهدت ضيقهم في أول الأمر ثم الدرعية بعد ذلك في زمن سعود وما عند أهلها من الأموال الكثيرة، وكثرة الرجال، والأسلحة المحلاة بالذهب والفضة، والخيل الجياد، والنجائب العمانيات، والملابس الفاخرة، وغير ذلك من أسباب الثروة التامة بحيث يعجز عن عده اللِّسان ويكلّ من تفصيله البيان. ونظرت إلى موسمها يوماً في الموضع المعروف بالباطن فوجدت موسم الرجال في جانب وموسم النساء في جانب آخر، فرأيت من الذهب والفضة والأسلحة والإبل والغنم والخيل والألبسة الفاخرة واللحم والحنطة وسائر المآكل ما لا يمكن وصفه، والموسم ممتد مد البصر وكنت أسمع أصوات البائعين والمشترين، وقولهم بعت واشتريت، كدويِّ النحل فسبحان من لا يزول»[1].

يمكن القول إنَّ هذا الرفاه الذي تمتعت به عاصمة الوهابيين كانت قد تمتعت بمثله جميع عواصم الدول الفاتحة على توالي العصور، إنَّما يجب أن لا ننسى أنَّه رفاه تمَّ على حساب الكوارث والمصائب التي حلَّت بالبلاد المفتوحة. وهنا يتضح مصداق النسبية الاجتماعية بكل وضوح، فالذين حصلوا على الرفاه لا بدَّ أن يلهجوا بمدح الدولة التي جاءت به ويعتبرونها خير دولة أخرجت

---

(1) إبراهيم فصيح الحيدري (عنوان المجد في بيان أحوال بغداد والبصرة ونجد) ـ بغداد 1962ـ ص233.



للناس، بينما أهل البلاد المفتوحة ينظرون إلى تلك الدولة نظرة أخرى ويعتبرونها على النقيض من ذلك ألعن دولة في الوجود. كل فريق ينظر إليها من زاويته الخاصة به، وهذا هو ديدن البشر منذ خُلق البشر، وفيه يكمن سِرٌّ مهم من أسرار التاريخ! (*).

(*) **علي الوردي، لمحات اجتماعية**، ج1، ص194 ـ 211 [معدّ البحث].



عودة الوهابيين

كان يقيم في بغداد شخص أفغاني الأصل اسمه «ملا عثمان» قيل إنَّه نذر نفسه للدفاع عن الإسلام وعزم أن يقتل رئيس الوهابيين[1]، وقيل في رواية أخرى إنَّه من أهل كربلاء وإنَّه كان فيها أثناء غزو الوهابيين لها وشهد بأم عينيه كيف ذبحوا زوجته وأطفاله فأقسم على الانتقام[2]. ومهما يكن الحال فقد ذهب ملا عثمان إلى الدرعية عاصمة الوهابيين وهو بزي درويش فاختلط بهم حتى اطمأنوا إليه ووثقوا به، فكان يصلي في الصف الثالث في صلاة الجماعة وراء الأمير عبد العزيز بن سعود مباشرة. وفي يوم جمعة ـ في أواخر عام 1803 ـ انتهز الفرصة أثناء الركوع فألقى بنفسه على الأمير وطعنه بمدية اخترقت بطنه من الخلف، ولم يكتف بذلك بل طعن عبد الله شقيق الأمير وكان يصلي بجانب شقيقه فجرحه جرحاً بليغاً ولكن هذا كان أسرع بالرغم من إصابته فأهوى على القاتل بسيفه فقتله[3].

---

(1) رسول الكركوكلي، **دوحة الوزراء**، بيروت بدون تاريخ، ص227.

(2) عبد الله فيلبي **(تاريخ نجد)**، ترجمة عمر الديراوي، بيروت بدون تاريخ، ص103.

(3) المصدر السابق، ص103.



تولى إمارة الوهابيين بعد عبد العزيز ابنه سعود، وقد ظن هذا أنَّ القتل جرى بتحريض من والي بغداد فعزم على الانتقام منه. ففي موسم الربيع من السنة التالية حين كانت عشيرة الظفير منتشرة في البادية وراء المراعي أغار عليها ابن سعود فنهبها نهباً، ثم توجه نحو البصرة فدهم الجانب الجنوبي منها وقتل فيه الكثيرين، وأغار على جماعة من المنتفق كانوا قرب البصرة برئاسة منصور بن ثامر السعدون فقتل بعضهم وأسر رئيسهم. وذهب إلى قصر الدريهمية ـ وهو مشرب أهل الزبير ـ فهدمه وقتل من كان فيه. ثم توجه نحو بلدة الزبير فشرع بحصارها، وأراد بث الرعب في سكان البلدة فأمر أتباعه عند غياب الشمس بأن يطلقوا رصاص بنادقهم كلها دفعة واحدة، ولما سمع أهل الزبير ذلك ارتعبوا وصعدت النساء إلى السطوح ووقع فيهم الضجيج ممَّا أدَّى إلى إجهاض بعض الحوامل، ولكنَّهم صمدوا ولم يتخاذلوا. واستمر الحصار اثني عشر يوماً حصد فيها الوهابيون المحاصيل الزراعية التي كانت ناضجة آنذاك، وهدموا جميع القبور والمشاهد الموجودة خارج السور كمشهد طلحة والحسن البصري[1]، ثم عادوا من حيث أتوا.

أرسل السلطان إلى علي باشا في بغداد يأمره بإلحاح أن يسير لحرب الوهابيين، والظاهر أنَّ علي باشا لم يكن يرغب في ذلك أو يشعر بالقدرة عليه، فأخذ يقوم بحركات بالظاهر ضد الوهابيين لا جدوى منها.

---

(1) عباس العزاوي **تاريخ العراق بين احتلالين**، بغداد 1954، ج6، ص161.



وكان قد أشيع إذ ذاك أنَّ محمد بك الشاوي وأخاه عبد العزيز يميلان إلى العقيدة الوهابية ولهما مراسلات مع سعود، فأمر علي باشا بقتلهما ممَّا أحنق عشيرتهما العبيد فقاموا بثورة شعواء، وقد استفحل أمر الثورة على أثر تحالف عشيرة العبيد مع عبد الرحمن بابان الذي كان من جانبه متحالفاً مع إيران، فأدَّى ذلك إلى توتر العلاقات بين العراق وإيران، ثم إلى إعلان الحرب بينهما، وكانت النتيجة أن هُزم جيش علي باشا تجاه الجيش الإيراني هزيمة منكرة[1].

الغارة على النجف:

وفي أواخر نيسان من عام 1806 جاءت الأنباء إلى أهل النجف بأنَّ الوهابيين قادمون لغزوها، فأخذ الكثيرون منهم يهربون من البلدة مخافة أن يفعل الوهابيون بها مثلما فعلوا بكربلاء قبل أربعة أعوام. ولم يبق في النجف من حملة السلاح القادرين على الدفاع عنها سوى مئتين.

انبرى للدفاع عن النجف الشيخ جعفر الجناجي الذي كان يتولى الزعامة الدينية فيها ـ وهو صاحب كتاب «كشف الغطاء» ـ وساعده بعض زملائه من رجال الدِّين فصار يجمع السلاح ويهيىء وسائل الدفاع. وفي الليلة التي أحاط الوهابيون بالبلدة كان الشيخ جعفر يشرف بنفسه على شؤون الدفاع، فأمر بغلق أبواب السور وجعل خلفها الصخور والأحجار، وعيَّن لكل باب عدداً من

---

(1) عبد العزيز سليمان نوَّار، **داود باشا والي بغداد**، القاهرة 1968، ص45.



المقاتلين، ولم يكتف بالمقاتلين من الأهالي بل جنَّد معهم طلبة العلم.

وقد سجل أحد المجتهدين الذين شهدوا الواقعة ذكرياته عنها ـ وهو السيد جواد العاملي صاحب كتاب «مفتاح الكرامة» ـ فكتب في آخر الجزء الخامس من كتابه يقول: «تمَّ هذا المجلد في أول شهر ربيع الأول سنة 1221 مع تشتت الأحوال واشتغال البال بمَا نابنا من الخارجي الملعون في أرض نجد فإنَّه اخترع ما اخترع من الدِّين وأباح دماء المسلمين وتخريب قبور الأئمة المعصومين... وفي سنة 1221 في الليلة التاسعة من شهر صفر قبل الصبح بساعة هجم علينا في النجف الأشرف ونحن في غفلة حتى إنَّ بعض أصحابه صعدوا السور وكادوا يأخذون البلد فظهرت لأمير المؤمنين عليه السلام المعجزات الظاهرة والكرامات الباهرة فقُتل من جيشه كثيراً ورجع خائباً وله الحمد على كلِّ حال»[(1)] [(*)].

---

(1) جعفر محبوبة، **ماضي النجف وحاضرها**، النجف 1958، ج1، ص327.

(*) علي الوردي، **لمحات اجتماعية**، ج1، ص221 ـ 223. [معدّ البحث].



غارات الوهابيين

بينما كانت بغداد مشغولة بأحداثها الدامية على نحو ما ذكرناه آنفاً، كان الفرات الأوسط مهدداً بخطر الغزو الوهابي حتى كان الرعاة هناك لا يستطيعون الخروج إلى البادية لخوفهم على أغنامهم من الوهابيين[1].

وقد سجل السيد جواد العاملي ذكرياته عن تلك الأيام في آخر المجلد السابع من كتابه «منهاج الكرامة» حيث قال ما نصه: «وقد أحاطت الأعراب من عنيزة ـ القائلين بمقالة الوهابي الخارجي ـ بالنجف الأشرف ومشهد الحسين عليه السلام وقد قطعوا الطريق ونهبوا زوار الحسين عليه السلام بعد منصرفهم من زيارة نصف شعبان وقتلوا منهم جمعاً غفيراً، وأكثر القتلى من العجم، وربَّما قيل إنَّهم مئة وخمسون وقيل أقل... وبقي جملة من زوار العرب في الحلة ما قدروا أن يأتوا إلى النجف الأشرف. فبعضهم صام في الحلة وبعضهم مشى إلى الحسكة. ونحن الآن كأنَّا في حصار، والأعراب إلى الآن ما انصرفوا، وهم من الكوفة إلى مشهد الحسين عليه السلام بفرسخين أو أكثر على ما قيل. والخزاعل متخاذلون مختلفون، كما أنَّ آل بعيج وآل جشعم يتقاتلون، كما أنَّ والي

---

(1) يوسف كركوش الحلي، **تاريخ الحلة**، النجف 1965، ج1، ص132 ـ 133.



بغداد جاءه والٍ آخر وأنَّه معزول وهما يتقاتلان. وقد عمت علينا أخبارهما لانقطاع الطرق. وبذلك طمعت عنيزة في الإقامة في هذه الأطراف ولا قوَّة إلَّا بالله»[1](*).

(1) جعفر محبوبة ، **ماضي النجف وحاضرها**، ج1 ص327 ـ 328.

(*) علي الوردي، **لمحات اجتماعية**، ج1، ص231 ـ 232. [معدّ البحث].



محاربة الوهابيين

كان السلطان محمود الثاني الذي تولى العرش العثماني منذ عام 1808م يرسل الكتاب تلو الكتاب إلى محمد علي باشا طالباً منه محاربة الوهابيين وإنقاذ الحجاز من أيديهم. والظاهر أن محمد علي كان في قرارة نفسه راغباً في أداء هذه المهمة التي كلفه بها السلطان إذ كان يعتقد أن العناية الإلهية قد سخرته لقتال الوهابيين الذين هم في نظره ونظر السلطان خارجون عن الإسلام[1].

جهز محمد علي حملة قوية بقيادة ابنه الأكبر طوسون باشا، وفي عام 1811م عبرت الحملة البحر الأحمر إلى ميناء ينبع ثم احتلت المدينة ومكة. وكان الوهابيون ينسحبون من أمامها حتى إذا حلّ صيف 1812م كرّوا عليها وهزموها هزيمة منكرة مما اضطرّ محمد علي باشا أن يذهب بنفسه إلى الحجاز للإشراف على قيادة الحملة.

يروي المؤرخ المصري عبد الرحمن الجبرتي في تعليل تلك الهزيمة عن أحد قواد الحملة أنه قال: «كيف كنا نطمع في النصر وأكثر عسكرنا على غير ملة الإسلام وفيهم من لا يدين بدين،

---

(1) بيير كربتيس، **إبراهيم باشا** ترجمة محمد بدران، القاهرة 1937، ص20.



وكان معنا صناديق الخمر، ولا تسمع في خيامنا أذاناً، ولا تقام بها صلاة، ولا تخطر ببالهم شعائر الدين، مع أن القوم كانوا إذا حلّ وقت الصلاة أذن المؤذنون وانضموا صفوفاً خلف إمام واحد في خشوع وخضوع، كل ذلك وجنودنا يعجبون من فعلهم هذا لأنهم لم يسمعوا به»[1].

عاد محمد علي إلى مصر عندما بلغه فرار نابليون من منفاه في جزيرة «ألبا»، فقد ظن أن نابليون سيعود إلى غزو مصر مرة ثانية، وفي عام 1816م أرسل محمد علي ابنه الثاني إبراهيم باشا إلى الحجاز لقيادة الحملة بدلاً من طوسون باشا الذي كان قد مات من جراء حمى أصابته.

كان إبراهيم باشا عندما تولى قيادة الحملة ضد الوهابيين في السابعة والعشرين من عمره، ومن طريف ما يروى عنه أنه حين وصل إلى المدينة قبل بدء القتال وقف عند قبر النبي وأخذ يتوسل به متضرعاً أن يساعده على قتال الوهابيين «العصاة»، وقد تملكه الحماس الديني آنذاك فأقسم أن يعتق جميع عبيده السود والبيض معاً، وأن لا يذوق الخمر بعد الآن. ويقال إنه عند عودته إلى المعسكر أمر بأن ترمى كل زجاجات النبيذ الموجودة في مخازن الميرة إلى النار[2].

استطاع إبراهيم باشا أن يهزم الوهابيين وأن يطاردهم في صحراء نجد حتى وصل إلى عاصمتهم «الدرعية». وبعد أن حاصر

---

(1) إبراهيم جلال بك، **من يوميات الجبرتي**، القاهرة بدون تاريخ، ص158.

(2) بيير كربتيس ، **إبراهيم باشا**، ترجمة محمد بدران، القاهرة 1937، ص29.



«الدرعية» بضعة أشهر تمكن من احتلالها في سبتمبر/أيلول عام 1818م، ثم أسر أميرهم عبد الله بن سعود، فكان انتصاره عليهم حاسماً.

يمكن القول إن هذا الانتصار الذي ناله إبراهيم باشا كان أول حدث من نوعه في تاريخ الصحراء العربية، إذ لم يكن قبل ذلك في مقدور أي جيش حضري أن يتغلغل في تلك الصحراء فاتحاً وأن يهزم فيها جموع البدو المتمرسين على القتال فيها والعارفين لمسالكها.

يعزو المؤرخ العراقي ابن سند البصري هذا الانتصار إلى المدافع والآلات الحربية الجديدة التي كان الجيش المصري يستعملها في القتال، فهذه الأسلحة تحتاج كما يقول ابن سند إلى علوم وصناعات وهندسة يجهلها البدو، وهو يصور لنا كيف استولى الرعب على البدو حين سمعوا أصوات المدافع لأول مرة في حياتهم وهي تدوي بين الجبال فقد كان لها هدير مخيف لم يعهدوا له مثيلاً من قبل[1].

ولما وصلت أنباء انتصار الجيش المصري إلى البلاد العثمانية عمّ الفرح فيها، لا سيما في العراق، وجرى الاحتفال بالنصر في كل مكان. وكذلك فرحت إيران وأرسل الشاه فتح علي سيفاً مرصعاً ثميناً إلى إبراهيم باشا، كما أرسل إليه ابن سند البصري من العراق قصيدة يمدحه فيها ويحرضه على ذبح الوهابيين كلهم

(1) عثمان بن سند البصري، **مطالع السعود** اختصار أمين الحلواني، القاهرة 1371هـ، ص87 ـ 96.



فلا يستثني منهم أحداً حتى الأطفال على اعتبار أنهم لا بد أن يكونوا خبيثين ما دام آباؤهم كانوا كذلك[1].

وقد وصف التاجر يوسف بن ديمتري المقدسي بلهجته العامية ما جرى في البصرة من احتفال في تلك المناسبة فقال ما نصه: «وفي 25ب ـ أي رجب ـ نهار الجمعة وصل للبصرة بيرقدار أسعد باشا ومعه صورة فرمان الدولة العلية ودخل في هلاي وتلى الفرمان باسم محمد سعيد باشا والي بغداد والبصرة وشهرزور وبعده بيورلدي من سعادته بتقرير المتسلمية لسليمان بك. وبعده قرأوا فرماناً من الدولة بخصوص انتصار محمد علي باشا والي مصر على الوهابي وبعده بيورلدي بهذا الخصوص وأنه يصير دعا للسلطان محمود خان وصار شنك في الصراي . ومن البلدة والمراكب رموا أطواب وسليمان (بك) أمر على الشنك سبعة أيام الصبح والعصر. . .»[2].

مؤتمر الدرعية:

أراد إبراهيم بعد انتصاره على الوهابيين أن يعقد في الدرعية مؤتمراً بين علمائهم وعلماء أهل السُنة، وهو مؤتمر يشبه من بعض الوجوه مؤتمر النجف الذي عقده نادر شاه في عام 1743م لفض الخلاف بين الشيعة والسُّنَّة، غير أن مؤتمر النجف انتهى بالاتفاق

---

(1) إبراهيم الوائلي، **الشعر السياسي العراقي في القرن التاسع عشر**، بغداد 1961، ص133.

(2) يعقوب سركيس، **مباحث عراقية**، بغداد 1948، ج1، ص22.



بين علماء الفريقين[1] أما مؤتمر الدرعية فقد انتهى بذبح العلماء الوهابيين جميعاً.

استدعى إبراهيم باشا إليه علماء الوهابيين وكان عددهم خمس مئة، فلما مثلوا بين يديه خاطبهم قائلاً: إنه يريد أن يمحو أسباب الخلاف المستحكم بين عقائدهم وعقائد السنة، وإنه أحضر معه من القاهرة جماعة من العلماء السنيين ويود أن يجمع بينهم ليبحثوا الأمر أمامه ويتجادلوا فيه.

انعقد الاجتماع في جامع الدرعية واستمر ثلاثة أيام متوالية، وكان إبراهيم باشا جالساً يصغي إلى الجدال الذي دار بين الفريقين من غير أن يبدي أية إيماءة تدل على تحيّزه لهذا الفريق أو ذاك، وظل يشرف على نظام المؤتمر بصمت فلم يقاطع متكلماً ولم يرفع صوته على أحد، فلقد كان وجوده كافياً لأن تسري بين المتجادلين روح الحرية والأدب[2].

وفي اليوم الرابع أقفل إبراهيم باشا باب الجدل بسؤال وجهه إلى كبير العلماء الوهابيين إذ قال له: «هل تؤمن بأن الله واحد وأن الدين الصحيح واحد هو دينكم؟». فلما أجاب العالم الوهابي بكلمة «نعم» رد عليه إبراهيم باشا بلهجته القاهرية قائلاً: «ما رأيك في الجنة أيها الخنزير وما عرضها؟»، وكان إبراهيم باشا يقصد من سؤاله هذا أن يشير إلى ما جاء في القرآن من أن الجنة عرضها

---

(1) انظر تفاصيل مؤتمر النجف في الجزء الأول من كتاب «**لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث**»، الفصل الخامس.

(2) بيير كربتيس ، **إبراهيم باشا**، ترجمة محمد بدران، القاهرة 1937، ص40.



السموات والأرض، ولم يستطع العالم الوهابي أن يعترض على ذلك طبعاً، وعند هذا قال إبراهيم باشا: «إذا كان عرضها السموات والأرض كما تقول، وإذا وسعتك أنت وأمثالك رحمة الله فدخلتم الجنة، ألا تكفي شجرة واحدة من أشجارها لأن تظلّلكم جميعاً؟ فلمن إذن بقية الدار؟ أسْألك الجواب». فسكت العالم الوهابي وأصحابه ولم يستطيعوا التقدم بأي جواب. فلما تبين لإبراهيم باشا أنه قطع حجتهم أمر جنوده بقطع رقابهم جميعاً. ولم تنقض سوى دقائق معدودة حتى كان الجميع في عداد الموتى ودفنت جثثهم في ساحة الجامع[1](*).

(1) المصدر السابق، ص40 ـ 41.

(*) علي الوردي، **لمحات اجتماعية**، ج2، ص30 ـ 34. [معدّ البحث].




مكتبة
الفكر الجديد

الفصل الثاني

تقرير القنصل الفرنسي في بغداد جان ريمون بتاريخ 1806

مبحث في أصول الوهابية وفي نشأة قوتهم وفي النفوذ الذي يتمتعون به كأمة

وثيقة غير منشورة من وثائق وزارة الخارجية الفرنسية مقدمة للسيد إدوار دريو مدير مجلة «نابوليون» طبع في المطبعة الفرنسية للعلوم الأثرية الشرقية المؤسسة الملكية الجغرافية المصرية برعاية جلالة الملك فؤاد الأول القاهرة

ترجمة: هدى معوض




مكتبة
الفكر الجديد

المقدّمة

بقلم إدوار دريو

بُعيد حملة نابوليون إلى مصر، فوجئت أوروبا بوجود قبيلة(*) تُدعى الوهابية قادمة من قلب الجزيرة العربية استولت على مكة المكرّمة والمدينة المنوّرة، المدينتين المقدّستين، متحدّية بذلك نفوذ السلطان (الخليفة العثماني) في قدس أقداس الإسلام نفسه. على أثر ذلك، تناول الرواة والمؤرخون الحدث ونتائجه.

نشرت مجلة «لو مونيتور» le Moniteur في 31 تشرين الأول/ نوفمبر 1804 رسالة من إزمير يعود تاريخها إلى 15 أيلول/ سبتمبر جاء فيها: «يقال بأن الوهابية مثار قلق دائم كما هي مثار فضول كبير». وحول أصولها، تروي على ستة أعمدة بإيجاز ولادة هذا المذهب حوالي منتصف القرن الثامن عشر، وعن عظات الشيخ محمد بن عبد الوهاب بن سليمان يدعو فيها العودة إلى صفاء القرآن، واتفاقه مع ابن سعود، أمير الدرعية والإحساء، لنشر الإيمان بحمل السلاح وفتح القسم الأكبر من الجزيرة العربية

(*) ليس هناك قبيلة اسمها قبيلة وهابية بل هي مجموعة قبائل من أتباع دعوة الشيخ محمد بن سليمان بن عبد الوهاب. [معدّ البحث].



من قبل عبد العزيز، وغزو ولاية بغداد، الاستيلاء وسلب مدينة ومرقد الإمام الحسين في العام 1802 ثم الزحف المظفّر على الحجاز والاستيلاء على الطائف الذائعة الصيت في البلدان العربية كافّة نظراً لخصوبتها التي لا تضاهى: «لعنبها مذاق لذيذ، وبطيخها الأحمر يكفي حجم القطعة فيها لإطعام عشرة رجال»؛ وأخيراً، استيلاء ابن سعود بن عبد العزيز على مكة المكرّمة. لكن الوهابيين هُزموا أمام جدّة والمدينة المنوّرة وعادوا أدراجهم إلى نجد؛ وفي 12 تشرين الثاني/نوفمبر 1803، اغتال درويش كردي(*) عبد العزيز، فخلفه ابن سعود.

هذه المقالة التي وردت في«المونيتور» أعادت نشرها جريدة «فرانكفورت» Journal de Francfort أثارت إعجاب جان ريمون، الكاتب المغمور في حينه.

وفي العام 1805، نشر سيلفستر دي ساسي Sylvestre de Sacy في «المجلة الموسوعية» Magasin encyclopédique مقالاً بعنوان «مدوّنات من القسطنطينية» جاء فيه أنّ الوهابيين هم من سُلالة القرامطة(**).

(*) راجع ص36 من هذا الكتاب. [معدّ البحث].

(**) ليس هناك علاقة بالمطلق بين دعوة محمد بن عبد الوهاب والقرامطة: سمّيت الحركة الوهابية بهذا الاسم نسبة إلى مؤسسها محمد بن عبد الوهاب، وقد وُلد هذا الرجل في العيينة من قرى نجد في عام 1703، وكان أبوه قاضي القرية فنشأ في بيئة دينية، وأتمَّ دراسته الدينية في مكة والمدينة والبصرة، وقد ظهرت عليه أولى بوادر التجديد الديني عندما كان يدرس في المدينة حيث رأى الناس يستغيثون بقبر النبي محمد ﷺ ويشفعونه في حاجاتهم فأنكر ذلك عليهم واعتبره إشراكاً بالله. وحين جاء إلى البصرة،وشاهد انهماك سكّانها في الشفاعة والتوسّل بالقبور، أخذ ينتقدهم بعنف مما أثار استياء البعض منهم =



في القرن العاشر الميلادي/ الرابع هجري، ثار القرامطة ـ وهم جماعة مشاغبة من بلاد البحرين الواقعة على الشاطىء الغربي من الخليج الفارسي ـ على الخليفة في بغداد. وفي العام 317هـ استولوا على مكة المكرّمة بقيادة حمدان القرمطي وسلبوها كلياً وارتكبوا مجازر مرعبة، واقتلعوا أيضاً الحجر الأسود، وقد اشتراه منهم الخلفاء فيما بعد.

ويشير سيلفستر دي ساسي أنه استند في تلك المدوّنات إلى المؤلّف التركي الجغرافي قطب شلبي أو حاجي خليفة الصادر بعنوان «جيهان ـ نوما» ـ الذي تابعه وطبعه في القسطنطينية إبراهيم أفندي ـ وإلى تاريخ مصر العربي الصادر بعنوان «نزهة الناظرين في تاريخ مَن ولي مصر من الخلفاء والسلاطين» والذي تولّى طبعه ابن الإمام يوسف الحنبلي.

وبعد أن جاز سعود فترة الحزن على وفاة أبيه، عاد إلى غزواته

فأخذوا يضايقونه، ثم طردوه من البصرة، وكاد يموت في الصحراء من العطش. إن الوهابيين أنفسهم لا يرتضون هذا الاسم لهم، فهم يسمّون أنفسهم بـ «الموحدين» وقد استعمل اسم الوهابيين في أكثر المصادر التاريخية العربية والأجنبية وهو الشائع» انظر ص13 من هذا الكتاب. [معدّ البحث].

أما القرامطة: فهي فرقة إسماعيلية نشأت في منطقة الخليج، فقد كان مؤسس الفرقة في منطقة الخليج رجل فارسي الأصل اسمه أبو سعيد الحسن بن بهرام الجنابي من مدينة جنابة الواقعة على الساحل الإيراني (واسمها اليوم جنافة مقابل جزيرة النفط خارك)، أقام هذا الرجل في بادىء الأمر في سواد الكوفة وتزوج هناك من أسرة اعتنقت الدعوة. قرمط أو عبدان قد أدخلاه في الفرقة. للمزيد راجع كتاب هانس هالم، **إمبراطورية المهدي**، دار الوراق، 2013، ص49 [معدّ البحث]..



التي طالت جميع الأرجاء من الخليج «الفارسي»(*) العربي حتى البحر الميت، وقد استأثر بمشاعر الصحافيين وشغفهم للاطلاع.

وفي العام 1809، كتب سيلفستر دي ساسي مقدّمة مؤلّف «وصف باشا بغداد» للسيد جان بتيست لوي روسّو وقّع بالأحرف الأولى من الاسم، والذي يشير إلى روسو الابن، قنصل فرنسا في بغداد وعلى ما يبدو كاتب المدوّنات في «المجلة الموسوعية» تناول فيها التطور الهام في تاريخ الوهابيين.

ولقد أشار السيد باربييه دي بوكاج، عضو المعهد المصري، إلى أن ما جاء في «وصف باشا بغداد» يعيد حرفياً على وجه التقريب، ما جاء في المقالة التي نشرت في «المونيتور» و«غازيت فرانكفورت» في العام 1804 اشتهر على أثرها كاتبها كورانسيز وشكر الحفاوة التي قوبل بها. وكان كورانسيز، العضو في لجنة العلوم والفنون التي أسسها نابوليون إبّان حملته في العام 1798، عضواً في معهد مصر. وبعد رحيل بونابرت، أقام كورانسيز ثمانية أعوام في حلب، وهو موقع مناسب لمراقبة ما يجري من أحداث في الصحراء. ولقد أفاد من وفرة المعلومات لديه وما جمعه مسيحي ماروني من حلب يُدعى دييغو فرانجه عبر مراسلاته العديدة

(*) يشكّل اسم الخليج أحد المشاكل بين الدولة العربية وإيران، وهناك أسماء عديدة أُطلقت على الخليج منها البحر المر والخليج الصغير وخليج البصرة، والبصرة أقدم مدينة على ضفاف الخليج ويعود بناؤها إلى العصر السومري وكانت تسمّى عند الفتح الإسلامي بالاسم الآرامي بصرياثا، واختصر الاسم إلى البصرة، وإنَّ إطلاق اسم خليج البصرة على الخليج هو أقرب إلى الصواب من كل التسميات الأخرى. [معدّ البحث].



عن سورية ومصر ودمشق وبغداد، وبخاصة مدوّنات جان ريمون ضابط المدفعية الذي كان في خدمة الباشا «وقد رعانا بمودته، كما أفادنا، نظراً لما يتمتع به من علاقات بفضل موقعه». وخلص كورانسيز إلى «معرفة يقينية عن الوضع الراهن لشعب حديث العهد جدير بالانتباه الكلي».

لنتناول ثانية، وبتحفظ، مصدر هذه المعلومات التي نشرها كورانسيز في العام 1810 موقعة بالأحرف الأولى «ل.أ» L.A. في كتابه «تاريخ الوهابية منذ نشأتها وحتى العام 1809».

لقد أردنا معالجة هذه المسألة البيبليوغرافية الصغيرة كي نشير إلى أهمية الوثيقة التي ننشرها بنوع خاص. ويجدر بنا القول إن مبحث جان ريمون، ضابط المدفعية السابق الذي كان في خدمة باشا بغداد، هو شاهدٌ عيّان على الأحداث التي يرويها بتواضع؛ ويبدو أن هذا المصدر الذي حصلنا عليه عن الوهابية هو الأكثر فرادة.

يبدأ كورانسيز كتابه هكذا: «إن الوهابية اليوم اسم ذائع الصيت في أوروبا مما يتيح لنا الحكم على مدى أهمية العمل الذي ننشره. ويبدو أن العرب هؤلاء يقدّر لهم تأدية دورٍ كبير في التاريخ. وفي حال أدّوا الرسالة المتوقعة لهم، فإن معرفة بدايات تكوينهم لها أهمية كبرى لما لهذه البدايات من دلالة على مدى عظمة الأمة...».

تُرانا لا نجازف في الأخذ على عاتقنا بنبوءة كورانسيز على الرغم من تشابه الظروف الغريبة بعد مرور مئة وعشرين عاماً. نحن لا نريد هنا سوى تناول معلومات جان ريمون وتوضيحها كي نحدد



بالتالي نفوذ الوهابيين في أوائل القرن التاسع عشر، على أن تضيء تلك الأنوار الزمن الحاضر لما فيه من تشابه.

ليس من شأننا القول عمّا إذا كانوا مؤمنين أو هراطقة أو كافرين. فطالما ادّعوا تقيّدهم بالقرآن الكريم وبنقاوته، وأن تعبّدهم إنّما هو لله الواحد الأحد، لا لغيره أكان قدّيساً أو نبيّاً، فهم ينكرون حتى على محمد مساواته بالله(*). واتهموا الأتراك بأنهم قد أفسدوا الإسلام، وأنهم يقاومون الترف، ويذكّرون بأن القرآن لا يسمح إلا باستعمال الصوف لا الحرير. وهم لا يتساهلون بأكل الحلوى أو احتساء القهوة أو تدخين الغليون. فقد أُدينت امرأة اتُهمت بتدخين الغليون الفارسي، وكان عقابها بأن وضعوها على ظهر بعير وطافوا بها في المدينة بعد ان رُبط عنقها بالخرطوم الطويل والمَرِن لتلك الأداة. إلا أن باستطاعة المرء أن يدخن بمعزل عن الناس على انفراد، ذلك أن القرآن يحرّم التنصت على أسرار البيوت ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾[1]، أو كما يقال عندنا، احترام خصوصية الآخر وعدم تجاوزها.

أقام سعود، زعيم الوهابية بعد وفاة عبد العزيز، مع عائلته في منزل كبير شيّده أبوه عند منحدر جبلٍ مطلٍّ على الدرعية. وكان لجميع أبنائه وعائلاتهم ولأخوته شققهم الخاصة المنفصلة. في هذا المسكن كان يحتفظ بكنوزه كما كان يستقبل

(*) يؤمن جميع المسلمين بأن النبي محمد بن عبد الله الهاشمي رسول الله وعبد الله، ولا يوجد مسلم يقول بأنَّ رسول الله مساوٍ لله عزَّ وجلّ. [معدّ البحث].

(1) سورة الحُجرَات: الآية 12.



جميع من تدفعهم أعمالهم للمجيء إلى المدينة. وكان يستقبل كبار الأمراء أو زعماء القبائل الكثيرة العدد ويحتفي بهم حال وصولهم، بينما كان يأوي العامة منهم عند معارفهم؛ وكان بإمكانهم، إذا كانوا أتوا لأعمال عامة، تناول طعام الغداء والعشاء في منزل الزعيم وتناول ما يكفي من الطعام اليومي لخيولهم وجمالهم. ويمكن للمرء أن يدرك دون عناء، أن القصر كان يفيض بالضيوف[1].

هذه العادات البسيطة كانت تتوافق والمزاج العربي وتطيب له. ولكونها تتطابق وتعاليم القرآن، فإنها أكسبت الجزيرة العربية نوعاً من الوحدة المعنوية وساهمت بتوسع الوهابية وانتشارها.

كما وفّرت طاقة فريدة للقدرة العسكرية. وكان عدد أفراد جيش ابن سعود قد بلغ حوالي مئة ألف جندي وكانت حركيته أشبه ما تكون بحركية البدو في شمال إفريقيا: لكل رجلين جمل مع مؤونة لعشرين يوماً، إلى جانب مطرتان توضعان على ظهر الحيوان، واحدة مملوءة ماء والأخرى دقيق الشعير، بالإضافة إلى قليل من الدقيق الممزوج بالماء. هكذا كانت وجبة الطعام. وفي حال نقص الماء يُعوّض عنه بقليل من البول؛ وعند الحاجة القصوى يُفتح وريد رقبة الحيوان ويؤخذ منه قليل من الدم ومن ثَمَّ يعود إلى الالتئام. بهذه الطريقة يمكن الذهاب بعيداً.

لقد انتشر الوهابيون وسادوا، خلال العشرة أعوام التي تهّمنا،

---

(1) راجع بوركهارت، **رحلة في الجزيرة العربية**، ترجمة، Eyriès، باريس، 1835. [إدوار دريو].



كافة البلدان الواقعة في الصحراء العربية، من بغداد إلى جدّة، ومن حلب ودمشق إلى مسقط.

في العام 1802، سلبوا مدينة الإمام حسين (كربلاء) وحمّلوا الغنائم على ظهر ثلاث مئة جمل في هذا الوقت، قام باشاوات بغداد بحملات عديدة ضدهم. لكن الصحراء عصيّة على الجيوش النظامية. كذلك أرسل البريطانيون البوارج إلى البصرة، ولكن دون جدوى، فأخذوا يراقبون بلاد مسقط.

كان الوهابيون، بعد أن أضحوا أسياد مكة المكرّمة والمدينة، يعاملون سكانهما بالحسنى؛ وكان أهل المدينة يكنّون لهم، على ما يبدو، الودّ. لكنهم كانوا غلاظ القلوب يأنفون زينة الأماكن المقدسة. فابن سعود انتزع السجادة النفيسة المصنوعة من الذهب والحرير التي وجدها على قبر إبراهيم، وقوّضوا قبب القبور منها قبة محمد، وانُتزِعت المآذن، لكن الكعبة حُفِظت وأُبقي على الحجر الأسود.

أما الأمر الأشد خطورة فكان، دون شك، مراقبة قوافل الحج وإعاقتها ومن ثَمَّ إلغاؤها. وهنا لا حاجة للتذكير بما للحج إلى مكّة من أهمية في الدين الإسلامي. فهو من أركان الإسلام الخمسة.

كانت دمشق مركز الحج الكبير بحماية باشا المدينة حامل لقب أميرحجي (أمير الحج)[1].

(1) يحدّد كورانسيز بدقة متناهية أوقات مسيرة القافلة. ويُقال إنها شُبّهت بدقة جدول مواعيد قطار السكة الحديدية: ص69 ـ 74. [إدوار دريو].



وكان الباشا عبد الله قد تمكن من تمرير القافلة عام 1805، لكن ابن سعود أعلمه بأنها ستكون المرة الأخيرة. وفي العام 1805، نُظّمت حملة لمرافقة الحجاج، فانطلقت من حلب ومن دمشق وما أن وصلت المدينة حتى أوقفت فوراً ومُنعت من الدخول. فسعود كان يأنف من مواكب الزينة ومن العلامات الوثنية. فسكان المدينة أنفسهم خرجوا لردّ الحجاج قائلين لهم: «عودوا إلى حيث أتيتم أيها الوثنيون، اذهبوا بعيداً عن الأماكن المقدسة، انتم الذين تشركون الله» وكان التقهقر كارثياً. وتوقف الحج على إثر ذلك عدة سنوات.

تأثّر من جرّاء ذلك نفوذ سلطان القسطنطينية لعجزه عن القيام بوظيفته الأساسية التي تقوم على حماية المدن المقدّسة بوصفه أمير المؤمنين. فكان له وقعه الكبير على العالم الإسلامي كلّه.

لذا، كان للفتح الوهابي في بداية القرن التاسع عشر، مساهمة هامة في تاريخ الإمبراطورية العثمانية. وكان التفكك قد أخذ منها كل مأخذ، حينها بدأ باشاوات القاهرة، وعكا، وبغداد، ودمشق، كما باشاوات أوروبا، وجنينا، وروتشوك يتصرفون كأمراء مستقلين.

أما الأخطر من ذلك، هو تلك الإساءة المعنوية والدينية لنفوذ سلطان القسطنطينية الذي لن تكون له قيامة بعدها مهما كان مصير المغامرة الوهابية. ولسوف نشهد أيضاً ردّات فعل ضدّ الأتراك، وهم من عرق غير عربي، ولكنهم لم يفيدوا من الحضارة الرائعة وليدة الفتح العربي فيما مضى.

هذه هي الأنوار الساطعة في الشرق الجديد.



لقد انهزمت الإمبراطورية العثمانية أمام هجمة الغرب، إلى جانب الانحلال الداخلي وظهور قوى جديدة متمثلة بالوهابيين.

هل ستعبر أوروبا طريق الهند؟ وهل سيستعيد الإسلام مزاياه القديمة؟ وكيف؟

كتب كورانسيز في العام 1809: «إنه لمن الصعب تحديد النفوذ الذي سيرتقي إليه الوهابيون. يمكننا فقط معرفة نفوذهم الآن. إن تحديد ما سيكون عليه مستقبلهم استناداً إلى وضعهم الراهن مسألة يصعب حلّها، وهي ليست في دائرة التاريخ».

قد يطيب لنا ترداد ما قاله. غير أن حداثتنا التي تعود إلى مئة عام تجعلنا نُدرك أن نفوذ الوهابيين الغابر تحطّم، وأن الحج إلى مكة المكرّمة أُعيد مع محمد علي.



جانب معالي السيد دي شامباني
وزير العلاقات الخارجية لجلالة الإمبراطور
نابوليون الكبير، باريس[1]

ملخص ـ تقديم المبحث عن الوهابيين

سيدي،

إنه لمن دواعي سروري أن تكونوا قد تسلّمتم الخطاب الذي سمحت لنفسي بتوجيهه بكل حرية إلى جناب معاليكم مطلع هذا الشهر، فتتكرّمون بقراءته بعين الرضى والترحاب! هذا الخطاب الذي يعبّر عن صادق أماني ومشاعر فرنسي قُيّض له شرف خدمة وطنه، ليس ذا قيمة بحد ذاته؛ إن التفاصيل التي تضمنّها هي محض شخصية، وفضله الكبير يعود إلى إرساله بطريقة شبه رسمية بواسطة السيد بلانش الذي شرّفني برعايته وحلمه، ويُشرّفني مرة أخرى أن تتسلّموا بواسطته هذه الرسالة مع مبحث عن الوهابية طيه، وتقبلوا معها عُربون محبة واندفاع لا لُبس فيهما في سبيل إفادة وطني في هذه الأقطار البعيدة.

---

(1) **مراسلات سياسية**، تركيا، مجلد 216، ورقة رقم 233، وثائق، رقم 6.



اسمحوا لي سيدي أن أجدّد هنا تمنياتي لكم بالنجاح والتزامي بتحقيقه، وتفضّلوا بقبول كامل احترامي وتقديري، . . .

بغداد في 30 أيار/مايو 1808

جان ريمون

في خدمة باشا بغداد



مبحث في أصول الوهابيين
نشأتهم وقوتهم ونفوذهم كأمَّة

تقرير لجان ريمون بتاريخ 1806 وثيقة غير منشورة مقتطفة من سجلات وزارة الخارجية الفرنسية

ملخص

أهمية المذهب الجديد

إن المهمة التي اتخذتُها على عاتقي قبل أن أتحدث عن الوهابيين، تقوم على مراقبة شتى العلاقات التي نسّقناها لإطلاع العامة على أصول «الوهابية» ونشأة نفوذها وتسارع عظمتها. ولقد تبيّن أن هذه المادة لكثرة ما استهلكت وفُصّلت أخبارها، عاجزة عن إضفاء شيء جديد أو مثير.

يبدو لي أن القسم الأكبر مما جاء في هذا البحث الذي نُشر في جريدة فرانكفورت تحت عنوان «إزمير» في 15 أيلول/ سبتمبر 1804 يتطابق والواقع، وهو الأكثر صحة مما شاهدته في هذا المجال؛ وقد تفحّصت بدقة جميع الوقائع وقارنتها بالعديد من الروايات عن التقاليد والعادات، كما لاحظت من خلال توافق الظروف والأحوال تشابه الهويات فيما بينها على وجه التقريب.



وكذلك، مهما تبين لي من هفوات في سرد التواريخ، فإنني تجنبتها في الكثير من النصوص التي أوردها المؤلف في هذه النظرة الإجمالية، وأضفتُ عليها بعض الأحداث الهامة. ويمكنني التأكيد على أنني لم أتعدَّ ما تقتضيه الحقيقة، كما أنني لا أنشدُ من وراء ذلك أي فخر في عمل كهذا إلّا بما قمت به من تحليلٍ للأحداث ولِما قدّمته من ألوان جديدة كي لا يلحق الملل بأحد. وتوخياً للنجاح في مهمتي، اعتمدتُ الدقة، معجبٌ بما قمت به من جهود مهما كانت ضئيلة. وهذا أمرٌ على غاية من الأهمية لما يُضفي بحث جديد من قيمة على عمل الآخرين.

إن الجزيرة العربية التي أنجبت هذه الجماعة المتعصّبة الأقوى والأكثر انتشاراً في العالم أنجبت، كما يبدو لي، جماعة أخرى لا تقل شأناً عنها في آسيا؛ فهي تعمل على تقويض أسس الإمبراطورية العثمانية.

حلم سليمان

إنه لأمر عادي أن تخفي أممٌ كثيرة أصولها وأن تلفُّه بستار من الغموض والسريّة؛ إن سليمان العربي ينتسب إلى قبيلة نجد(*)، وهو إنسان فقير الحال، بسيط وشريف، رأى في حلمه شعلة من نار تخرج منه هي أشبه بعمود من اللهب يجتاح الحقول ويضرمها

(*) ليس هنا قبيلة اسمها القبيلة النجدية بل قبائل نجدية، بل إنَّ هناك مجموعة من القبائل في الجزيرة العربية آمنت بدعوى الشيخ محمد بن عبد الوهاب أطلق عليهم اسم الوهابية من قبل مخالفيهم، أمَّا أتباع الشيخ عبد الوهاب فيطلقون على أنفسهم اسم الموحّدين ويرفضون تسمية الوهابية. [معدّ البحث].



بناره. ولشدّة خوفه من هذه الظاهرة، استشار عجائز قبيلته الذين توقعوا له ولداً يأتي بديانة جديدة، وتعترف به زعيماً جميع القبائل القاطنة في هذه الفضاءات الممتدة ما بين البحر الأحمر والخليج «الفارسي» العربي.

عبد الوهاب

وما كان متوقعاً لم يتحقق إلا بشخص الشيخ محمد حفيد سليمان وليس بشخص ابنه عبد الوهاب الذي كان يفتقر إلى المواهب الضرورية لتحقيق هذه المهمة الصعبة؛ وهو لم يخلّف سوى اسمه كذكرى مشرّفة للمبشّرين الجدد للتعبد وممارسة شعائرهم والدعوة إلى الديانة الجديدة(*). وفي عهده كانوا يعقدون اجتماعاتهم في منازل خاصة لا يتجاوز عددهم ثلاثين نفراً، ولم يعودوا يختبئون كي يتابعوا تعاليم دينهم في عهد محمد، لا بل أصبحوا يرفعون علم الإصلاح جهاراً دون خوفٍ من العقاب. ويمكننا القول بأن عبد الوهاب قد زرع، بعد انقضاء سبعين عاماً على وفاته، أصول هذه الجماعة حتى اختمرت وبانت على أيدي الشيخ محمد.

الشيخ محمد

إنه في الواقع إنسان مقدام وحاذق، شجعته الظروف المؤاتية لتحقيق الحلم الذي خلّفه في ذهن قبيلته، فاستخدمه بمهارة كي

(*) ليس هناك دين جديد، إن أتباع الشيخ محمد بن عبد الوهاب يرفضون أن يطلق عليهم أصحاب مذهب جديد فكيف إذا أطلق عليهم دين جديد؟ [معدّ البحث].



يحظى باحترامهم ويظهر أمامهم بصفة نبي(*). وتشاء الظروف أن يجد دعماً لقداسة رسالته كونه سليل عائلة النبي محمد، وبسهولة تمّ تسليمه دفة القيادة.

نقاوة القرآن

النبي الجديد(**) هذا اعتنق كل ما احتواه القرآن من نقاء كما أوحي به لمحمد، فنزع عنه ما توارث من أقاويل وأخبار بالية أضفت المعجزات على حياة النبي وذلك اعتباراً لحكمة النبي وعدله. وكان داعياً إلى عبادة الله وحده لا شريك له، رسلاً كانوا أم أنبياء. فمن تعبّد لهم هو مجرمٌ بحق ربه العلي القدير، وأوضح لأتباعه أن الوسيلة الوحيدة للحصول على محبة الله هي في أن يهلك مدنّسو حُرمات دينهم؛ وأقنعهم بأنه رسول غضب الله جاء لإهلاك المسلمين الضالين، كما أنذرهم في الوقت نفسه بوجوب توحيد عبادة الله العلي العظيم بممارسة جميع الفضائل وسلوك طريق الاستقامة والزهد في الحياة.

إحياء الأخلاق

هذه التعاليم، وإن مارسها بصرامة أتباع المذهب الجديد، فهي

(*) كل المصادر التاريخية تؤكد على تقشف وتعفف الشيخ عبد الوهاب عن المال أو السلطة يقول الدكتور الوردي في كتابه **لمحات اجتماعية** ج1 ص195: «لقد ملكت هذه الفكرة عقل الشيخ محمد حتى صار لا يرى في الحياة سوى هدف واحد هو إرجاع الناس إلى الفطرة الإسلامية الأولى وهي عبادة الله وحده وترك عبادة الأضرحة». [معدّ البحث].

(**) ليس نبياً بل صاحب دعوة. [معدّ البحث].



بطبيعتها تدعو إلى شَظف العيش. أما غرضها فهو إثارة كره الدنيا أكثر من ترغيبهم بها لدى أولئك الرجال المتشبثين بعاداتهم وأفكارهم، والذين يتبجحون باستقلاليتهم ومعتادون على اللصوصية. ولقد استشعر الشيخ محمد بن عبد الوهاب عواقب الاستكانة التي سيواجهها في حال عدم إشغال رجاله، وسعى إلى حماية رسالته بالسلاح للحدّ من الرغبة العنيفة لديهم للسلب والسير بهم إلى القتال ضد أعداء الله؛ فخرج إلى اليمن يبحث عن حلفاء أقوياء يرغبون بدعمه؛ بيد أن محاولاته باءت بالفشل. فابتعد عن المدن الكبرى يائساً من التوصل إلى اجتذاب بعض الأمراء لقضيته، عازماً على مهاجمة الأماكن التي توفر له سيطرة سهلة وانقياداً سريعاً لأوامره؛ فتوجه نحو نجد وتحالف مع سعود أمير الدرعية والإحساء الذي بايعه على نشر دعوته.

التحالف مع سعود أمير الدرعية

سعود هذا كان على رأس أمة كبيرة تتألف من قبائل آل نجد وآل عنزة وآل عتوب(*) الذين اختاروه زعيماً عليهم. من صفاته الإقدام وحبّه للغزو. وما الديانة الجديدة (الدعوة الجديدة) سوى وسيلة لتحقيق مطامعه وحجة يسعى من ورائها إلى تحقيق الانتصار. فكان من السهل لقاء صديق موثوق به، فاعتنق عقيدة (دعوة) ابن عبد الوهاب، وكان قدوة احتذاها جميع الذين كانوا تحت إمرته.

(*) انضمّ إلى دعوة الشيخ عبد الوهاب العديد من القبائل النجدية، منها قبيلة عنزة وقبيلة العتوب وغيرها من القبائل. [معدّ البحث]



التحالف الروحي والزمني والتنظيم العسكري

لقد كان هذا التحالف مناسبة موفقة لتثبيت أركان الدين واستقرار الأمر لمحمد عبد الوهاب وأتباعه الذين أطلق عليهم اسم الوهابيين (نسبة إلى عبد الوهاب والد محمد كما مرّ معنا سابقاً). تقاسم محمد وسعود السلطة على رأس هذه الأمة الجديدة. احتفظ الأول بالسلطة الروحية فيما انصرف الثاني للاهتمام بالأمور الزمنية؛ وتعاهدا على صيانة هذا التقاسم حفاظاً للأجيال القادمة في ذريتهما، كما اتفقا على اختيار الدرعية المدينة المحصّنة جيداً، الواقعة جنوب غرب بغداد في وسط صحراء شاسعة وعلى مسافة 12 يوماً من البصرة كي تكون عاصمة هذه الإمبراطورية الناشئة. وهناك وضع سعود أول خططه لتوسيع فتوحاته، وقام بالإشراف على جميع الترتيبات وتابع أمور تنظيم جنده، فأخضعهم لجميع التمارين ودرّبهم على الجوع والعطش لمدة يومين أو ثلاثة أيام، مكابدين وصابرين على العناء بحسب ما تقتضيه ضرورات الحرب ضمن طبيعة الصحراء الجافة.

الجمل هو مطيّتهم يطلقون عليه اسم merdouphah المردوف (الهجانة) لأن باستطاعة شخصين ركوبه، وهو حيوان لا غنىً عنه وباستطاعته مقاومة العطش مدة أربعة أيام أو خمسة؛ فلا عجب في مثل هذه الحال من التنظيم أن يمتلك ابن سعود جيشاً جباراً قادراً على اجتياز أماكن بعيدة في الصحراء خلال مدة قصيرة، فأخضع قبائلها جميعاً زارعاً الرعب أينما حلّ. لكن الأجل وافاه قبل أن يحقق ما كان يصبو إليه من توسع، فخلفه ابنه عبد العزيز.



وما كاد يصل إلى سدّة الحكم حتى وجّه أنظاره لتحقيق ما طمح إليه أبوه، واستعمل لبلوغها قيادة ممنهجة.

خضوع القبائل المجاورة

قبل مهاجمة العرب، كان عبد العزيز يوفد إلى القبائل العربية التي يسعى لإخضاعها رسولاً ينذرهم قائلاً: «القرآن في اليد والسيف في اليد الأخرى». (إما قبول الدعوة وتعاليم القرآن أو أن يعمل السيف بكم) وكان يتوجه إليهم برسائل تتضمن روح الإصلاح. هاكم مقتطفاً من هذه الدعوة القصيرة: «سلام على قبيلة كذا.... إذا استمعتم لأقوالي، تنقذون أنفسكم، ومن عصى وازدرى يقع تحت حكم الغضب الإلهي». كان لهذا الكلام القاسي المدعوم بجيش مظفّر أثره الفاعل. إنه لمن المستحيل إعلان أسماء القبائل التي خضعت للوهابية؛ فالتي استسلمت لإغراءات عبد العزيز لاقت ترحيباً حسناً، والتي رفضت الخضوع له وعصيت، فتك بها وغنم ثروتها.

عبد العزيز بن سعود: القرآن في يد والسيف في اليد الأخرى

لاقى عبد العزيز أينما حلّ نجاحاً؛ هذا النجاح الذي يواكب أمة تشهر سلاحها وتحارب من موقع ديني، جعل من الوهابيين أسياد حرب يعجز أمامهم من سعى لمقاومتهم؛ فزرعوا الرعب في القلوب، وكانوا يتوزعون في أماكن عدّة في الوقت نفسه، وكان حضورهم المفاجىء يرهب النفوس. وبعد أن يستولوا على غنائم نفيسة من أعدائهم المنهزمين، يعودون أدراجهم إلى الدرعية



ويقتسمون غنيمة الحرب. وكانت حصّة عبد العزيز الخمس، وحصة جنوده ما تبقّى.

انتصارات باهرة وغنيمة مظفرة والإرهاب يلف الجوار

بعد هذا الكمّ من الانتصارات المظفّرة، ازدادت ثروة عبد العزيز ووجد تحت أمرته جيشاً قوياً جبّاراً وفيّاً لأوامره، وكان رعاياه يكنّون له الودّ ويؤدون له الطاعة العمياء إلى درجة أنه عندما يحتاج عون قبيلة للقيام بحملة ما، كان يكتفي بتوجيه خطاب لها يتضمن ما يلي: «من عبد العزيز إلى الشيخ (فلان)..... عليكم تجميع (كذا) عدد من الرجال في يوم (كذا)... في المكان (كذا)...»، فإذا بالأمر ينفذ حرفياً. على أن هذا الوفاء البالغ يجب ألّا يفاجىء أحداً؛ فأي توانٍ في الامتثال لأوامره يحتّم الموت. وهكذا كان ابن سعود يجد في الزمان والمكان المحدّدين العدد المطلوب من الفرسان المسلّحين بالرماح القصيرة والبنادق، وتراهم يحملون على ظهور جمالهم مؤونة عشرين يوماً.

تدخّل الباب العالي

كانت الجزيرة العربية في هذه الأثناء تضجّ بانتصارات الوهابيين حتى دبّ الجَزَع في البلدان المجاورة. فالمدن المعرّضة لحملاته كمكة المكرّمة والمدينة المنوّرة وبغداد ومسقط كانت تخشى العواقب الوخيمة، في حين أن الباب العالي لم يكن يرى في حينه في الشعب النامي سوى زمرة من المتعصبين الغارقين في تقواهم؛ وكان ينظر إليهم، في بداية الأمر، نظرة احتقار لِما هم عليه من بؤس وشقاء وشظف عيش. إلا أنه لم يعد بإمكان الباب



العالي التغاضي عن الشكاوى المتكرّرة للولاة أو عدم الاكتراث لانتصارات عبد العزيز بعد أن أخذه العجب لما يروى عن فتوحاته، مُبدياً ندمه لعدم التحرّك للقضاء على أفراد هذه الجماعة قبل اتساع رقعة انتشارهم؛ فقرّر الحدّ من نموّهم وأمر باشا بغداد الإعداد للقيام بحملة ضدهم، مشيراً إليه بضمّ قواته إلى قوات إمام مسقط.

غير أن حكومة بغداد كانت تؤيد الوهابيين؛ وكان الوزير الأول في البلاط الكهية أحمد، الذي يتسم بصفات كانت ستضعه في مصاف كبار الرجال والأمراء لو أن بريق صفاته الحسنة لم يغشِها شِحّه المُعيب؛ ولكان استطاع أيضاً، لو شاء، القضاء على هذه الجماعة الناشئة دون عناء؛ ولكن انقياده وراء المنفعة الشخصية وتأثره بمحمد الشاوي، زعيم عشيرة العبيد والمستشار الخاص للباشا والمسؤول عن شؤون العشائر (باب العرب) في البلاط، جعلاه يطمئن ويهدّىء مخاوفه لناحية تعاظم نِفوذهم، إلى درجة أنه منحهم ودّه، وكان ينظر إليهم ككيان زائل قوته في ضعفه.

باشا بغداد يزحف باتجاه الوهابيين

في مطلع العام 1796، أرسل سليمان باشا (باشا بغداد)، بناءً على مشورة وزيره الأول، إلى الباب العالي عرضاً مفصلاً ومنطقياً يثبت فيه أن طريق بغداد ـ الدرعية غير صالحة للعبور إن لناحية قحط أرضها أو لشحّ المياه؛ وأن التنظيم العسكري المتبع لدى الوهابيين هو تماماً نقيض تنظيم العثمانيين؛ وأنه نظراً للظروف الصعبة الحالية، فإن السياسة الحكيمة تقضي باتخاذ موقف دفاعي



بدلاً من المجازفة والدخول في مواجهة غير مضمونة النتائج، إلا في حال أعطيت الأوامر إلى جميع باشاوات المناطق المحاذية للوهابيين للتعاضد فيما بينهم والقضاء على هذا العدو المشترك. وبعيداً عن الأخذ بعين الاعتبار ملاحظات باشا بغداد السليمة، استسهل الباب العالي الأمر وكرّر تعليماته بصرامة؛ فوصلوا في وقت فقد فيه الوهابيون صديقاً بوفاة الكهية أحمد.

حملة عام 1797

علي آغا (باشا الآن) عندما كان يومئذٍ أميناً للخزانة لدى باشا بغداد سليمان والعدو اللدود للكهية (أحمد آغا)، قام عبد الله آغا بقتل أحمد آغا بحضرة سيّده إرضاء لحقده الشخصي (أي علي آغا)، مما أكسبه منصب الوزير الأول (لاحقاً).

استشاط سليمان باشا غضباً من هذا الفعل، وأراد معاقبة الجاني؛ ولكن مستشاروه بيّنوا له المخاطر التي ستتعرض لها المدينة في حال اعتمد أي تدبير من هذا القبيل، فأرسل وراء القاتل وعيّنه كهية، وحتى زوّجه من ابنته. وكمدافع متحمس لدينه، اغتنم هذا الأخير هذه الفرصة للانتقام من الإهانة التي تعرّض لها الرسول. وقَبِلَ بكل سرور قيادة جيش سليمان باشا الذي حشده لمهاجمة الإحساء، يرافقه محمد بك (الشاوي)، الذي كان يقدّم له المشورة ويساعده على تسيير الأمور خلال الحملة؛ وفي أواخر العام 1797 سلك طريق الحِلّة وتوجه على امتداد نهر الفرات تحت أسوار البصرة حيث أقام ما يقرب من ثلاثة أشهر حتى تمّ الانتهاء من الاستعدادات الكافية للحرب.



حصار الإحساء

أخيراً، في الأيام الأولى من شهر كانون الأول/ يناير 1798، وبعد مسيرة شاقة طيلة عشرة أيام بين الصخور الوعرة وكثب الرمال المتحركة، أصبح علي باشا على مسافة ثلاثة أيام من الإحساء. وبسبب عدم وجود مرشدين أكفّاء لبلوغ آبار المياه العذبة، بقي هؤلاء ثلاثة أيام دون ماء، كما غاصت مدفعيتهم في الرمال، مما اضطرهم إلى جرّها بالجمال والتحرك ببطء.

وعند اقترابه من الإحساء، قام علي باشا بإرسال فرقة من طليعة فرسانه لاستطلاع مواقع العدو المتقدمة. لكن الوهابيين تمكّنوا من مفاجأة رجالها وقطّعوهم إرباً إرباً وذلك بفضل جواسيس لهم زرعوهم في كل مكان حتى داخل مجالس أولئك الذين يُعادونهم، وكانوا على علم بوصول علي باشا، فانتظروه. أما القلّة الباقية من الطليعة فتمكّنت من الفرار من جموح هؤلاء الوهابيين وذهبت عند الكهية وأخبرته بما حصل؛ فسيّر لهم على الفور كوكبة من الفرسان الأكراد لينتقم من هذا الإخفاق، فتوغل هؤلاء إلى داخل المدينة، وهدموا وذبحوا كل من وقعت عليه أيديهم. فأدهشت شجاعتهم العالم، وانسحب الوهابيون إلى القلعة، وأوفد السكان الناجين من غضبة الأكراد رسولاً إلى الكهية يعلمونه بأن المدينة تلتمس ودّه (الأمان).

فوجىء الوهابيون بمحاصرتهم بعشرة آلاف إلى اثني عشر ألف رجلٍ، فالتمسوا هدنة شهر ليقرروا خلالها تسليم القلعة، وحصلوا عليها. وكانوا يسعون من وراء ذلك إلى كسب الوقت وخداع علي



باشا، إلا أنهم نكثوا بوعدهم بعد انقضاء المدة المحدّدة لهم؛ وبدأ الحصار. وسُمع دويّ أصوات المدافع وانهمرت القنابل على القلعة مما ألحق بها أضراراً كبيرة. وعندما أيقن من سقوط القلعة، أدرك عبد العزيز الخطر الذي يتهدده إلى جانب عجزه عن المقاومة لوقت طويل، فحاول عن طريق الذهب صدّ ما لم يتمكن من صدّه بالسلاح واتصل بمحمد بك (الشاوي) الذي كان يعرف تمام المعرفة مدى تعلّقه بمصالحه الشخصية، وكان الاثنان يتراسلان طيلة فترة الحصار. وقدّم له هدايا نفيسة لحمله على التأثير على الكهية علي لأجل ثنيه عن تدمير القلعة. فوعده محمد بك بتقديم الدعم له، وعمل بالفعل على تباطؤ الحصار تدريجياً. وكان المحاصِرون قد نجحوا في إحداث ثغرة كبيرة لشن الهجوم، فكان محمد بك، تحت ذرائع عدّة، يعمل باستمرار على إعطاء المحاصَرين وقتاً لإصلاحها وتكرار ترميمها. وكان جنود علي باشا قد حفروا الأنفاق التي كادت تصل إلى القلعة قبل أن يصطدموا بنفقٍ مضاد. وكان محمد يبلّغ العدو بكل ما كان يحدث وقام بإضرام النار في النفق، فقضى بفعله هذا على معظم العمّال.

انهزام وانسحاب الوهابيين على أبواب البصرة

وعندما مُني علي باشا بالفشل في الإحساء بسبب مناورات محمد بك (الشاوي) السريّة ومخططاته، أخفى مشاعره؛ وخوفاً من استياء سليمان باشا في حال لم يتبع نصائح مستشاره (محمد بك الشاوي)، وقرَّر فكّ الحصار حالما تتبيّن له علامات الإنهاك على جنوده وتتبدّد مخاوفه من قيام الوهابيين بالهجوم عليه. أعطيت



الأوامر في هذا الصدد؛ وفيما يلي الإجراءات التي تُمليها الحكمة للقيام بتراجع سريع. لقد عجز العسكر الصريع أن يتابع تحرّكه بسبب الفشل الذي لحق به، والمرض الذي أصاب جنوده، وفقدانه الكثير من الخيول والجمال التي نفقت بسبب التعب والعطش والجوع؛ فرأى علي باشا أنه من الأفضل الانسحاب في أقرب وقت ممكن تجنباً للمفاجآت الكارثية، فقام بدفن الذخيرة التي يمكن الاستغناء عنها، كالمتفجرات والقنابل والمدافع وما إلى ذلك، واحتفظ بما يكفي للدفاع عن النفس، إذا لزم الأمر؛ وكُوّمت الأمتعة العديمة الجدوى، مثل الخيام، والأرائك، والفرش، الخ... وأُحرقت. كل ذلك تمّ بشكل دقيق؛ وعند منتصف الليل بدأ العسكر بالتراجع إلى الوراء بأسرع ما يمكن. إن الإجراءات السريعة التي اتُخذت واحتمال الجيش للعطش، إضافة إلى الخوف من ملاحقة الوهابيين كانت بالنسبة إلى الجيش أقل هولاً من أهوال الجوع التي قد يتعرض لها إن حصل أي تأخير في الانسحاب.

تراجَعَ العسكر قَسْراً، وكان قد قطع منتصف الطَريق تقريباً إلى البصرة لما شاهد عدداً كبيراً من الرجال ممتطين الجمال يحاولون الاستيلاء على بئر حيث كانوا سيخيّمون. فأرسل علي باشا على الفور كتيبة من الخيّالة لمنعهم من تحقيق ذلك، ولإعطاء الوقت الكافي للعسكر كي يتجمّع ويقيم الخيام، واقتناعاً منهم بأن العثمانيين كانوا مصممين على القتال، وأن لديهم من القوة ما يضاهي قوتهم، أوفد الوهابيون بعض الرسل إلى القائد Haid مع عروض للصلح التي رفُضت في البدء؛ تَبِع ذلك بعض المناوشات الدامية، لكنها لم تدم طويلاً. عرض الوهابيون تسديد جميع



نفقات هذه الحملة، وتمت المصالحة بوساطة محمد بك (الشاوي). ولو قُيّض لعلي باشا المفعم بالحماسة التأثير على مستشار سليمان باشا وإدارة دفة العمليات، لكانت هذه الحملة ضربة قاضية على نفوذ الوهابيين. لكن النتيجة جاءت خلافاً لذلك؛ فقد زال خوف الوهابيين وأصبحوا من خلال تجربتهم على بيّنة من إمكانية التغلب على أسلحة باشا بغداد، وبدأوا بإخضاع العرب القاطنين على ضفاف الخليج «الفارسي» العربي، وبسطوا نفوذهم على جميع أنحاء البصرة. وبحلول نهاية عام 1799، كانوا قد استولوا على العديد من الموانئ البحرية.

الوهابيون في يوم زيارة الإمام علي (النجف)

بيد أن السلطة في بغداد كانت يومئذٍ على علاقة جيدة مع الوهابيين، لا تشعر بالقلق من أن يخلفوا بوعود الوفاء التي قطعوها، ولم تهتم بعدد مناصري الديانة(*) الجديدة الضاربين على طول الخليج الفارسي. ولكن حدثاً مؤسفاً عكّر صفو هذا الهدوء الظاهر.

منذ إتمام الصلح بين باشا بغداد والوهابيين، سيّر أتباع هذه الجماعة المتعصبّة قوافلهم إلى مدينة الإمام علي من أجل مقايضة السلع التي ينتجونها بسلع أخرى يحتاجون إليها.

وكانت أعمال التجارة نشطة إلى حدٍّ ما. في بداية العام 1800، لم يكن عددهم يتجاوز المئتين. وتُعتبر القافلة سوقاً

(*) هي دعوة وليس ديانة. [معدّ البحث].



تجارياً كبيراً للسكان المحليين الذين يبيعونهم الفائض لديهم؛ لكن شجاراً وقع بين هؤلاء التجار وبعض قبائل العرب الذين كانوا يحجّون إلى ضريح الإمام علي المقدّس أثار بعض التوتر. وخلال الليل احتشد رجال القبائل وذبحوا ثلاثين من الوهابيين، هرب الباقون وحملوا نبأ هذه الكارثة إلى عبد العزيز.

نزاع دامٍ

بعد أن علِم عبد العزيز بالخبر السيئ، أوفد بعض الرُّسل على عجل إلى سليمان باشا يطالبه بالغدالة وبإنزال عقوبة الموت على المذنبين. استُقبِل الموفدون بحفاوة، وبعد أن تلقّوا هدايا ثمينة التقوا على انفراد بشقيق محمد (بك الشاوي)(*) ويُدعى عبد العزيز (بك الشاوي). توجه هذا السفير بحراً إلى خليج القطيف، ومن هناك إلى الدرعية لطمأنة عبد العزيز. وأعرب له عن صداقة وود سيّده وأكثر له من الوعود. ولكن زعيم الوهابيين طالب، استناداً إلى التعاليم القرآنية ﴿وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ .. وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ﴾[1]، تسليمه مرتكبي العمل الإجرامي اللاإنساني ليتم ذبحهم وتقديمهم

(*) آل الشاوي هم شيوخ قبيلة العبيد التي تنتشر في جنوب كركوك وخصوصاً في قضاء الحويجة، تنتمي القبيلة إلى زبيد الصغرى وهم أبناء عمومة الجبور والدليم، يعود تاريخ هجرتهم إلى العراق إلى القرن السابع عشر الميلادي، في منتصف القرن الثامن عشر انقسمت أسرة الشيوخ الشاوي إلى أسرتين تولّت أقدمهما منصب المشيخة وذهبت الثانية إلى بغداد حيث خدم أفرادها طوال سبعين عاماً كـ (باب العرب) أي كمفوض للسكّان الأصليين حيث مرّت قضايا البدو جميعها بين أيديهم. [معدّ البحث].

(1) سورة المَائدة: الآية 45.



قرباناً عن روح الذين قُتلوا ظلماً، أو أن يتمّ دفع ديّة ثمن دمائهم، على نحو ما جاء في كتاب الله ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ﴾[1]. ولما تبيّن لشقيق محمد بك (الشاوي) أن المفاوضات لم تُسفر عن أي نتيجة نظراً للصلاحيات المحدودة التي منحه إياها الباشا وأن لا طائل من متابعتها، عاد أدراجه إلى سموّه وأوضح له صحّة ما يدّعيه عبد العزيز. لكن الباشا لم يأبه للحجج المنطقية المقدّمة إليه، وأنِف من إحقاق العدالة لعدو يكنُّ له كل الازدراء. أثار هذا التصرّف الاستفزازي حفيظة الوهابيين، وعزموا على الثأر للظلم الذي لحق بهم والقيام بعمل مماثل.

الوهابيون يفاجئون مدينة الإمام الحسين (كربلاء)

وكان عبد العزيز منشغلاً في اختيار الوسيلة للاقتصاص من سليمان باشا لرفضه مطالبه، فاختار يوم 20 نيسان / إبريل لعام 1802[*] لتنفيذ حكمه بارتكاب مجزرة في مدينة الإمام الحسين (كربلاء)، وهي من أهم المعالم الاسلامية الشيعية شهرة يتوافد إليها الزوار باستمرار من الهند وإيران.

---

(1) سورة النِّساء: 92.

(*) يذكر د. علي الوردي في كتابه **لمحات اجتماعية**، ج1، ص206، أن الهجوم وقع يوم 22 إبريل/ نيسان 1802 المصادف 18 ذي الحجة من سنة 1216 هجري. وهذا اليوم كما هو معروف أعياد الشيعة ويسمى «عيد الغدير» وقد دخل الوهابيون بلدة كربلاء يومذاك على حين غرّة وهم شاهرون سيوفهم يذبحون كل من يلقونهم في طريقهم، ولم يستثنوا منهم الشيوخ والنساء والأطفال. [معدّ البحث].



مجزرة وسلب

في هذا اليوم كان غالبية زوّار مرقد الإمام الحسين يتحلّقون حول قبره احتفاءً بعيد مولد الإمام علي، ولم يبق لحماية المكان سوى قلّة من الحَرَس. وامتثالاً لأوامر والده، تقدّم الأمير سعود نحو أسوار المدينة التي كانت مهجورة تقريباً بقيادة جيش قوامه 7000 من الهجّانة (أي ما يقارب 14000 رجل)، فحاصروا مدينة الإمام الحسين على الفور. وعلى الرغم من مقاومة الحرّاس الشديدة لهم، كان لا بد لهم من الخضوع أمام القوة في نهاية الأمر؛ وما لبث الوهابيون أن دخلوا حرم القبر المقدّس ودمّروا محتوياته وقدّموها قرباناً وتعبّداً لشعائرهم الجديدة اعتقاداً منهم بأن ما قاموا به هو أمرٌ محبّب لدى الله مما زادهم ميلاً إلى إراقة الدماء، فقضوا على الرجال والنساء والأطفال إلا من استطاع الهرب والنجاة من غضبهم الجامح. وما إن انتهت المذبحة وفرغت من أي ضحايا جدد حتى بدأ البعض منهم يفكر بالاستيلاء على الكنوز الطائلة التي جُمعت من تبرعات المؤمنين الذين أتوا من جميع أنحاء آسيا وغيرها، كما ذهب ببعضهم الآخر الظن إلى أن قبّة المسجد قد غُلّفت بأوراق الذهب، فأخذوا بإزالتها، ولكن ما إن تيقّنوا من أنها ليست سوى رقّاقات من النحاس المُذهّب اكتفوا بانتزاع الجزء القليل منها.

وما إن علِم سليمان باشا بخبر وصول الوهابيين حتى بعث بقائده على عجل على رأس فرقة من الخيّالة لمواجهة أعمالهم اللصوصية؛ فتوجه علي باشا فوراً إلى كربلاء، ولكن كان من المستحيل عليه اللحاق بالوهابيين بعد انقضاء خمس ساعات على



استيلائهم على المدينة التي قُتل فيها سيئو الحظ ممن تواجد هناك، ونهبوا قبر الإمام الحسين المقدّس، محمّلين على جمالهم الغنائم النفيسة التي استولوا عليها ثم اختفوا. فُجِع سليمان باشا بالخبر المُحزن وندِم، ولكن لاتَ ساعة مندمِ... ثمّة سبب يدفعنا للتحدث بإيجاز عن سيرة يعرفها الجميع.

عودة تاريخية إلى أصول عائلة الإمام الحسين المقدسة وسلالة النبي محمد

إن الحسين، حفيد النبي محمد، وابن الإمام علي وفاطمة بنت النبي، رفض الاعتراف بخلافة نجل الغاصب معاوية(*) على المسلمين بعد أن فُجع بوفاة والده علي وشقيقه الحسن المأساوية. فاختار الاعتكاف في مكّة المكرمة حزيناً يرثي لبلائه. وكان الكثير من مؤيّديه ومن المسلمين كافة قد تبنّوا قضيّته، ولكن دون أن يشكلوا عصبة دعماً لحقوقه. في أثناء ذلك، تلقى الحسين دعوة من الكوفيين للذهاب إليهم وإعلان خلافته. وكان أصدقاؤه قد بذلوا قصارى جهدهم لإقناعه بعدم الإصغاء إلى وعودهم البرّاقة. لكن الحسين واجه بازدراء نصائحهم الحكيمة وغادر مكة المكرّمة ترافقه زوجاته وأخواته وأطفاله بصحبة مئة شخص من الذين عزموا على مشاطرته المصير. وصل الحسين إلى الكوفة، وهي مدينة صغيرة في أرباض مدينة الإمام علي، فوجد الأبواب مغلقة، يطارده جيش من خمسة آلاف رجل، فانسحب إلى سهل الغاضرية وحطّ رحاله على ترعة تقع على ضفاف قناة، وكان قد أُنذر بأن

(*) لقد رفض الحسين بن علي الاعتراف بخلافة يزيد بن معاوية. [معدّ البحث].



أحد قادة يزيد قد استولى على هذا الموقع، ومُنع الحسين من الاقتراب منه، باستثناء زوجاته.

استشاظ الحسين غضباً من هذا السلوك العِدائي، وفضّل الموت على القبول بشروط مهما كانت صادقة؛ وتهيّأ للقتال. وتراجع مع خيامه بشكل يتعذّر معه تطويق جيشه الصغير، وبدأت معركة من أعنف المعارك استمرت عشرة أيام ونيّف(*). كان الليل يفصل بين المقاتلين، وتراهم في النهار يُعاودون القتال بضراوة. أخيراً وفي اليوم العاشر، استُنفِدت قوى الحسين، وتراجعت قدراته بسبب الجروحات التي أثخَنت جسده، غير آبه بدموع نسائه اللواتي حثثنه على الاستسلام، وكان محطّ إعجاب أعدائه، الذين أعجبوا ببطولته، دموعهم تدمي قلوبهم غير قادرين على قتله؛ فهم لم يَروا فيه سوى سليل النبي محمد. وما إن جلس لحظة ليستريح حتى رماه القدر برمح ألقاهُ صريعاً بين اثنين وسبعين من أصحابه الذين قضوا وهم يقاتلون معه. قُطع رأسه وأُحضر إلى يزيد في دمشق. ووري الثرى في الغاضرية أو نينوى(**) في السنة الستين للهجرة، دون مراسم ودون أي علامة تدل على مكان دفنه.

لم يُكتشف مكان دفن الإمام الحسين سوى بعد انقضاء أكثر

(*) معركة كربلاء أو ما يُعرف بمعركة الطف كانت يوم العاشر من محرم عام 61 هجري واستمرت لساعات معدودة وليس عشرة أيام، لكن طقوس محرّم أو ما يُعرف بالتعازي الحسينية جعلت الطقوس عشرة أيام تبدأ من اليوم الأول من محرّم إلى اليوم العاشر. [معدّ البحث].

(**) الغاضرية: قرية بابلية قديمة، كربلاء اليوم نينوى: قرية بابلية قديمة، قريبة من سدة الهندية اليوم (المترجم).



من مئة عام على الحادثة عندما قام الإمام جعفر، أبو الإمام موسى، بإعلام عامة الشعب بمكان جثة الإمام قائلاً: هذه كربلاء (مكان المآسي كرب وبلاء). وتمّ بناء مقبرة صغيرة هناك. ومنذ ذلك الحين، تحوّل هذا المكان إلى عتبة دينية. وما لبثت مواكب الشرف التي يؤديها الشعب له ولوالده الإمام علي أن أحدثت شرخاً لدى المسلمين. وأُطلق على أنصار هذا الأخير بالشيعة أو المنشقين، بينما اتخذ أعداؤهم اسم السُّنة والجماعة.

في العام 232 هـ (847 م) أصدر الخليفة جعفر الأول(*) تحريماً يُتلى في المساجد يمنع فيه ذكرى علي والحسين وأمر بتدمير وهدم قبريهما. وظلّ مقامهما موضع ازدراء حتى العام 247 هـ (861 م)، إلى أن أعاد الخليفة محمد الرابع(**) ترميمهما وللإمام الحسين جلاله واحترامه؛ وما أن استولى في العام 352 هـ (963 م) معزّ الدولة من سلالة «البويهيين» السلطة المدنية في بغداد، حتى أعاد إحياء أيام «عاشوراء» وذلك لذكرى معركة العاشر من محرم التي خاضها الحسين ضد يزيد. في هذه الحقبة، دبَّ النزاع بين السنّة والشيعة امتد لأكثر من ثلاثة قرون كان يُحرّم فيها المذهبان بعضهما البعض، وتحوّل الشرق إلى مسرحٍ لحروب دامية أوقدها التعصّب.

(*) هو أبو فضل جعفر المتوكل على الله ابن المعتصم ابن هارون الرشيد وقد اتفق العسكر الترك مع ابنه المنتصر بالله على قتله وهو في مجلس الشراب في 3 شوال عام 247 هجري. [معدّ البحث].

(**) المهتدي بالله محمد بن هارون ابن الواثق العباسي تولى الخلافة 255 هجري وعزل عام 256 هجري. [معدّ البحث].



في أثناء ذلك، دعا الخليفة عبد الله السابع(*) هولاكو للانتقام للشيعة، آملاً بوضع حدٍّ لهذه الكارثة. خرج أمير التتار من موطنه على رأس جيش من مئة ألف رجل وانقضّ على بغداد في العام 656 هـ (1258م) وذبح جميع سكّانها. وهكذا دُفن الشيعة تحت الأنقاض عِوَض أن يجدوا في المنتصر التتار العون المأمول الذي وُعدوا به، إلى أن جاء حكم الشاه إسماعيل الأردبيلي(**)، مؤسس الصوفية. بنى هذا الملك في القرن الخامس عشر مقاماً على ضريح الإمام الحسين، وسمح بزيارته للقادمين من شتّى الأصقاع.

وأقام العديد من الفرس بجواره. وفي عهده عَظُم شأن الشيعة وأصبحوا في بلاد فارس يشكلون مذهب الأغلبية السائد. ولم يتوانَ خلفاء الشاه إسماعيل عن القيام بزخرفة ضريح الإمام الحسين المقدّس وتجميله، أمثال الشاه عباس، وطهماسب وقلي خان(***)، إلخ ... منذ أن دُنّس مقام الإمام الحسين؛ وسار

(*) هو عبد الله ابن المنصور المستنصر تولى الخلافة عام 546 هجري وقتل عام 565 هجري. [معدّ البحث].

(**) إسماعيل بن صفي الدين الأردبيلي تولى قيادة الحركة الصفوية وهي طريقة صوفية وفي بداية أمرها لم تكن تختلف كثيراً عن الطريقة البكتاشية من حيث كونها مزيجاً من التصوّف والتشيّع الاثني عشري، وهو الذي أسس الدولة الصفوية في إيران وفي عام 1508 استطاع أن يفتح بغداد وبعد يوم من دخوله بغداد ذهب إلى كربلاء، وأدى مراسيم الزيارة وأمر بصنع الصندوق المذهب لقبر الإمام الحسين. (المصدر **تاريخ العراق بين احتلالين** ج1، عباس عزاوي). [معدّ البحث].

(***) وهو نادر قلي خان وقد أطلق الأوروبيون عليه لقب «نابليون الشرق»، إنه كمعظم جبابرة التاريخ نشأ نشأة وضيعة فقد كان قاطع طريق وزعيم عصابة من =



شاهات فارس الجدد على خطى أسلافهم في جودهم وعطائهم وبني حول الضريح سياج رائع من الفضة. ومدينة الإمام الحسين مدينة لا حصون فيها، غير متناسقة البناء، تقع على مسافة عشرين كيلومتراً(*) من مدينة الإمام علي، ويقطنها حوالي ستة آلاف نسمة.

وخوفاً من أن يشنّ الوهابيون هجوماً على مدينة الإمام علي، أقام الكهية في أرباضها حتى في أشدّ أيام الصيف قيظاً. كان يسكن ريفها رهط من الوهابيين المرتحلين، يفرّون هاربين لسماعهم بضعَ طلقات نارية. وكان باشا سليمان أصدر أمره بحماية كنوز الإمام علي من جشع الوهابيين، فقام الكهية علي بنقلها إلى مقام الإمام موسى(**) حيث تقع أحد العتبات الشيعية المقدّسة على مسافة أربعة كيلومترات من بغداد، وقفِل عائداً إلى المدينة.

= الأشقياء، وفي ذات يوم رأى في المنام الإمام علياً يقلده سيفاً ويهيب به لإنقاذ إيران ويعده بالعرش، فكان هذا الحلم له بمثابة نقطة تحوّل في حياته حيث أيقن بأنه مكلّف بمهمة يجب أن يؤديها، وصادف في ذلك الحين أن ظهر في مازندران رجل يطالب بعرش إيران يدعى طهماسب شاه وهو ابن الشاه حسين آخر ملوك الدولة الصفوية، فأسرع نادر قلي خان إليه واضعاً نفسه وأتباعه تحت أمره. ثم أصبح بعد ذلك شاه إيران وفتح الهند ومناطق القوقاز. (علي الوردي، **لمحات اجتماعية**، ج 1). [معدّ البحث].

(*) تقع كربلاء على بعد 80 كيلو متراً جنوب النجف أو ما يعرف بمشهد علي. [معدّ البحث].

(**) وهو الإمام السابع من أئمة الشيعة ويُعرف بموسى الكاظم ابن جعفر الصادق ابن محمد الباقر ابن علي زين العابدين ابن حسين بن علي بن أبي طالب. [معدّ البحث].



إذا كان هذا الظرف الطارىء قد أثّر عميقاً في باشا بغداد، ويمثل ضربة قاصمة لعظمته، يجب الاعتراف بما كان لمَلامة فتح علي شاه له من أثر بالغ نَفَذَ إلى قرارة كيانه بحيث إنه لم يعد يطيق العيش من بعدها. ومع ذلك، ووفقاً للوعود التي قطعها لملك فارس، قام بإصلاح مقام الإمام الحسين، ثم نظّم حملة ضد الوهابيين؛ لكن المَنيّة وافته في 7 آب/أغسطس وحالت دون تنفيذ ما رمى إليه.

الوهابيون في مكة واحتلال خاطف للمدينة

وما إن تأكد تراجع سعود، وأن استلاب كنوز قبر الإمام الحسين سبّب الذعر في قلوب العرب ومحبّيه، وأن الاستئثار بكنوز تراكمت على مدى قرون لا يمكن أن تصمد أكثر من سنة، حتى جاء خبر يفيد أن عبد العزيز حوّل نظره نحو مكة المكرّمة. في الواقع، أدرك عبد العزيز مدى الخوف الذي ينتاب الجميع، وأن كل شيء يرتعد على وقع السلاح، فنزع إلى الإفادة مما يخلّفه من انطباع متباهياً أمام أعدائه بقدرته على توسيع فتوحاته الظافرة غرباً كما فعل شرقاً؛ لذلك هو لا يرى في غزوته الجديدة سوى نصر سهل المنال نظراً للخلاف القائم بين شريف مكة(*) غالب وأخيه الذي طلب نجدة زعيم الوهابيين. وأنذر عبد العزيز أول من أنذر غالب كي يتنازل عن صلاحياته؛ ولما رفض الانصياع لأوامره، أرسل ابنه على رأس 80000 من رجاله كي يعيده إلى

(*) تولّى الشريف غالب إمارة مكة بين عام 1788 ـ 1813 وأمّا أخوه سرور فقد تولّى إمارة مكة بين عام 1773 ـ 1788 [معدّ البحث].



رشده. ابتدأت هذه الحملة بسقوط الطائف، وهي مدينة صغيرة تقع وسط سهل خصب جميل. إن الأنباء التي ذاعت حول النجاح الباهر للحملة وخبر مجزرة قُتل فيها 1500 من الرجال اليهود والمسلمين معاً، نشر الذعر في المدينة المقدسة بامتياز؛ وهذا ما دفع الشريف غالب لمهاجمة سعود في الطائف بقوى غير متعادلة بدل انتظاره في مدينة غير محصّنة. لكنه هُزم وأجبر على العودة إلى مكة المكرمة ليخفي عار هزيمته.

وفي غضون ذلك، وبينما كان عبد الله باشا، والي دمشق وحامي (أمير حملة الحج السورية) الحجاج الذاهبين إلى مكة المكرّمة، في طريقه إلى هناك وعلى مسافة يومين فقط من دمشق حتى بلغه خبر سقوط الطائف والمصير الذي يتهدّد مكة المكرّمة. فكتب إلى القسطنطينية يُنذر الباب العالي بما حدث، وواصل السير غير آبه بالصعوبات التي قد تعترض طريقه. وبعد مسيرة يومين ألقت مفرزة قوامها أربع مئة وهابي القبض عليه بذريعة جزية تؤديها القوافل عادةً مطالبين بزيادتها أربعة أضعاف خلافاً لما هي عليه. رفض عبد الله باشا استجابة رغبتهم، فوقع القتال وجندل أرضاً مئة وخمسين وهابياً في ساحة المعركة.

ولجهله بما سوف تكون عليه ردة فعل سعود عند بلوغه نبأ مصرع رجاله، أرسل له عبد الله باشا كتاباً يُنبئه بالحدث. وبحذاقة السياسي المَرِن، رحّب بما جاء فيه وأجاز له زيارة بيت الله الحرام لثلاثة أيام. وعندما علِم غالب باشا بقدوم الحجاج، ازداد خوفاً من المصير الذي يتهدده وطلب وساطة عبد الله باشا. استهجن



سعود هذا التصرّف، فاضطرّ عبد الله باشا إلى مغادرة مكة المكرّمة في اليوم المحدّد يرافقه إلى المدينة المنوّرة غالب باشا وشريف باشا قاصدين بعدها جدة. وحين بلغاها عمدا إلى تحصينها وأعدّا عدّتهما للحرب، في حين دخل سعود مكة المكرّمة دخول المنتصرين وأحكم سيطرته عليها، وقد سلّمها له أهلها من دون قتال، وكان قد ترك في الحامية مئتي فارس لحراسة القلعة وعيّن متولياً للسهر على رعاية عبد المعين بعد إعادته إلى الإمارة وتوجه قاصداً جدّة لمحاصرتها.

انهزام أمام جدة والمدينة المنورة

وعند بلوغه أسوار جدّة التي قام بترميمها الفار الشريف غالب بدا لسعود الظافر أن وهج انتصاراته الماضية أفِلت عند أسوارها. وكان لمقاومة المحاصرين الشديدة، والخسائر التي تكبّدها رجاله عند كل هجوم، وفتك الطاعون الذريع قد ثبطت من عزائمه عدا عن سوء الأنباء عن أحوال قواته الموجودة في المدينة المنوّرة، ما دفعه إلى رفع الحصار عن جدّة.

التقهقر

ومع ذلك، وإزاء الخزي من النكسات التي لحقت به، قام سعود بمحاولة ثانية للانقضاض على المدينة المنوّرة؛ إلا أن خطته فشلت، فاضطر للتقهقر إلى الدرعية حيث كانت تنتظره أشد المصائب إيلاماً. وبعد عودته إلى العاصمة، عَلِم أن الشريف غالب طرد المئتي فارس بمساعدة أهل مكة المكرّمة، وانتزع للمرة الثانية الإمارة من شقيقه، كما أُبلغ أنه في مطلع العام 1803، قام



باشا بغداد(*) وكان هذا الأخير، كما أسلفنا، قد كرّس حياته لخدمة الوهابيين؛ وبعد وقت قصير، شعر سعود بالألم عند رؤية والده يقع تحت طعنات متعصبٍ مرتشٍ من قبل علي باشا.

اغتيال عبد العزيز

إليكم قصة هذا الاعتداء: ذاع خبرٌ جاء فيه أن من يضحّي بحياته من أجل إنقاذ العالم من شخص عبد العزيز سيلقى مكافأة من الله. فتوجه درويش كردي(**)، إلى الدرعية ووجد وسيلة للدخول في خدمة عبد العزيز، وسعى في بادىء الأمر إلى كسب ثقة رئيسه الجديد دون أي صعوبة، كما توصل هذا الخادم الأمين إلى حضور جميع المحافل برفقة عبد العزيز أينما حلّ. وعندما حان وقت هذا الفعل الآثم، اغتنم فرصة تأدية عبد العزيز صلاته، فرماه أرضاً وعاجله بطعنةٍ في الظهر، كما همّ بضرب سعود الذي كان بقرب والده ولم يتمكّن منه. وتوفي الكردي على الفور بعد أن طُعِن طعنات عدة قاضية. وحالما وصل الخبر إلى باشا بغداد، قام سموّه بمكافأة ناقل الخبر بسخاء. خلِف سعود والده؛ ومن

(*) هو علي باشا المعروف بـ الكتخدا (الكهية) وهو الذي ذبح (خنق) محمد بك (الشاوي شيخ العبيد) ـ المصدر ـ **العراق بين الاحتلالين**، ج6، ص155) لعباس العزاوي. [معدّ البحث].

(**) كان في بغداد رجل أفغاني الأصل يدعى ملا عثمان عزم على قتل عبد العزيز السعود فتوجه إلى الدرعية، وصل إليها بصفة درويش وأظهر التنسك والزهد. وكان يضمر اغتيال عبد العزيز، فوثب عليه وطعنه فقضى عليه، وجرح عبد الله أخاه فبايع القوم بالإمارة لسعود بن عبد العزيز، وقيل إن القاتل من أهالي كربلاء قتل أولاده في الغزوة على كربلاء. [معدّ البحث].



المناسب قبل الحديث عمّا فعله لدى اعتلائه السلطة الزمنية، أن نتوقف عند الصفات التي اتّسم بها عبد العزيز.

عُرِف عبد العزيز بحسن سياسته وبمهارة قيادته على السواء. وكانت العدالة هي التي توجه جميع تصرفاته، فكان يُنفق مما يُدخر، تملؤه مشاعر الإنسانية، مما أكسبه قلوب رعاياه، وبشكل أدق، غدا كأبٍ لهم. دائم الحراك واليقظة، لم يكن يتوانى عن أي شيء في سبيل كسب احترامهم. ولقد أدرك مذ تولّيه السلطة أن الغنائم أمرٌ في غاية الأهمية. وعندما سمع جنوده يهمسون فيما بينهم أن القسم الأكبر من الغنائم تذهب لقادتهم، أعطى الأوامر بتوزيعها بعدل؛ وبعد أن لاحظ بالتالي أن معظم القبائل العربية كانت مترددة في تبني الأفكار الوهابية خوفاً من نهب ثرواتها، أعلن أن أي أحد يقرّ قانونه الذي هو قانون القرآن الكريم، والذي هو قانون الله سبحانه وتعالى، لن يصيبه أي أذى إن في شخصه أو ممتلكاته. إن حصافة مثل هذا الأمر كان له التأثير الإيجابي المأمول.

وكان عبد العزيز صادقاً وأميناً يفي بعهوده: لمّا طلب السيد مانيستي المقيم (البريطاني) في البصرة والذي يسعى لصداقة هذا الفاتح، تسهيل أمر نقل البضائع بين البصرة وحلب، أصدر عبد العزيز أمراً يقضي على كل العرب الذين هم تحت سلطته بعدم التعرّض لساعي بريد السيد مانيستي. وعلى الرغم من هذا الحظر، تعرّض ساعي بريد مانيستي للسرقة من قبل الوهابيين وهو في طريقه إلى حلب لتسليم الحزم. اشتكى مانيستي عند عبد العزيز، وكان هذا الأخير قد أرسل تعميماً إلى جميع إماراته ينص على



إدانة كل من يخرق قانون المثول أمامه؛ واقتناعاً من المذنب بصعوبة الإفلات من عقاب سيّده، جاء ورمى بنفسه عند قدميه حاملاً الحزمة بيده. فكان الموت ثمن عصيانه. وقام عبد العزيز بقطع رأسه وبلّل الحزمة بدم هذا المسكين وبعث بها إلى مانيستي ليبرهن له صدق وفائه بتعهداته. ومهما كانت الدوافع غير المعلنة لعبد العزيز، لا بد من الاعتراف بأن قسوة هذا العمل إنما هي سياسية أكثر منها وداً يربط بينه وبين المقيم (البريطاني) في البصرة.

وكان عبد العزيز أيضاً شديد الحرص على احترام حقوق الناس. وكان يرى أن من واجبه ان يُعيد إلى قبيلة حَدَثَ التي أعلن الحرب عليها ما استولى عليه من يوم كانا يعيشان معاً بسلام وكأن شيئاً لم يكن. وفي معرض إنصاف ذكرى هذا المتعصب الشهير يمكننا ذكر أمثلة كثيرة من هذا القبيل تعتبر فخراً له، ولكننا أتينا على أمثلة كثيرة، وآن الأوان للحديث عن حكم سعود.

ابنه سعود... عظمته

ورث سعود بأس أبيه دون فضائله. صحيح أنه ليس على تعصّب أبيه، ولكنه كان أكثر استبداداً. نزّاع إلى الأبهة والبذخ، كل شيء في قصره يوحي بالعظمة والروعة، وهو لم يدخر شيئاً لتزيينه وتجميله، مقتنياً الذهب واللؤلؤ ونفيس الأقمشة من الهند. يُقال إن المعطف الذي يرتديه أو ما يسمى العباية، قطعة رائعة لا تقل كلفتها عن 60000 قرشٍ متداول حالياً. وإلى جانب ما يُروى عن رونق قصره وما يحتويه من مقتنيات فاخرة، كانت حاشيته



تحاكيه في الاكتساء رونقاً وبهاءً، لكنه كان يُرغمها على التقيد ببساطة الملبس. وكما كان سعود يلفت إليه الأنظار بمظاهر البذخ داخل قصره، فكذلك لدى خروجه منه، كما كان يفرض الإكرام والتقدير لعديد أفراد موكبه أينما حلّ.

تجدر الإشارة هنا إلى أن الشيخ محمد توفي منذ ما يقرب الستة عشر عاماً، وابنه حسين ولد أعمى، وقد خلف أبيه حسبما يؤكد العارفون.

إن أول ما قام به سعود بعد وفاة والده هو إرسال مفرزة من الهجانة إلى المناطق القريبة من مدينة الإمام علي (النجف أو ما يعرف بالمشهد) في أواخر عام 1803، ليقول لباشا بغداد إنه إذا كان قد استطاع التخلّص من جريمة قتل عدوّه، فعبد العزيز والده لا يزال حيّاً فيه. وعندما عَلِم علي باشا بخبر اقتراب قوات سعود، أرسل لملاقاته الشيخ فارس جربا(*)؛ وهو وهابي، وزعيم

(*) الشيخ فارس الجربا شيخ مشايخ شمر ويعرف بفارس الكبير (يقول أوبنهايم في كتابه **البدو** ج1 ص 236 ـ أمضى فارس قسماً من حياته رهينة في الدرعية، عاصمة الوهابيين، لأن آل سعود درجوا على ضمان ولاء البدو بأخذ رهائن منهم. مع وصول نبأ موت مطلق عام 1798م، فرّ فارس إلى العراق، ثم تولى قيادة قبيلته المتبقية وكانت تقيم آنذاك في الشامية (الديوانية الآن)، فيما بعد مكنته ظروف ملائمة من إقامة علاقات وثيقة مع الحكومة، لدى تغير الباشا عام 1802 م وسقوط مستشاره للشؤون البدوية محمد بك الشاوي من قبيلة العبيد ضحية للصراع الوظيفي، فاختير فارس خلفاً له، لإلمامه الدقيق بالشؤون الوهابية، التي كانت على قدر خطير من الأهمية بالنسبة لولاية بغداد. مات الشيخ فارس عام 1818 م، والذي لا شك في أنه كان أكثر ساسة أسرة شيوخ شمر نجاحاً. [معدّ البحث].



قبيلة قوية تقطن السهول الواقعة في بلاد ما بين النهرين شمال الحِلّة. والداه يقطنان الدرعية؛ بالنسبة إليه، ونظراً لما يحظى به من اعتبار في البلاط، كان شديد الارتباط بعلي باشا، وذا حماسة كبيرة لخدمته، ولكن ليس بقدر إخلاصه لمصلحته الخاصة. ومع ذلك، فإن هذا العربي سار لمحاربة الوهابيين. وعندما رآهم، أبلغ باشا بغداد الذي مشى لملاقاته على رأس مجموعة من الرجال يرافقه كبار ضباطه الكهية. وما إن توحّدت قواتهم حتى قاموا بملاحقة العدو. وجرت بعض المناوشات فَقَد خلالها الوهابيون العديد من الرجال. وهرب الباقون في جنح الظلام وعاد الباشا إلى بغداد.

الاستيلاء على مكة المكرمة والمدينة المنورة

وما إن بلغه خبر الأضرار التي ألمّت به، حتى أرسل سعود بكتيبة أخرى تضرب في الصحراء؛ فتم عرقلة نقل الحزم (البريد)، كما احتُجِزت جميع الرسائل بين البصرة وحلب، في حين سار بنفسه نحو مكة والمدينة (المنوّرة) محاولاً التعويض عن هزيمة قواته ببعض النجاحات المحظوظة. ولم يجد صعوبة في استيلائه على هاتين المدينتين حيث ارتكب السلب والنهب على أنواعه ثم انسحب.

خراب حول البصرة

في مطلع العام 1804، برز الوهابيون كقوة حول الزبير، وهي مدينة تقع عند نهر الفرات شمال البصرة على مسافة قريبة منها. كانت المدينة تنعم بالأمان. وكان الوهابيون الذين لم يعتمدوا بعد



أي وسيلة تمكّنهم من الاستيلاء بالقوة على أي موقع كان، قرّروا الاستيلاء على الزبير في جنح الظلام. وتقدّموا نحوها بهدوء حين ظهر صدفةً رجلٌ قبيل بزوغ الفجر ليرعى قطيعه بالقرب من الساقية، واسترعى انتباهه وجود أولئك الرجال، فأنذرَ المعنيين. وهكذا أُنقذت المدينة. واضطر سعود إلى التخلّي عن خطته، وكان يسعى أن يحطّ رجاله وجيشه على ضفاف قناة قرب المدينة؛ ولكن حصناً صغيراً يقع على مرتفع محصّن بمدفعين، يحميه سبعة حرّاس حالا دون اقترابه من المدينة. كان بمقدور الحصن الصمود فترة طويلة أمام الوهابيين، إلا أن أمراً ليس في الحسبان جعلهم يستولون على موقع من الصعوبة بمكان الاستيلاء عليه. ذلك أن الحرّاس توجسوا من افتقارهم إلى البارود؛ ولما قام أحدهم، وكان يحمل مِشعلاً مضاءً، بوضعه على الأرض ريثما يأتي بالذخيرة من المخزن، تسرّبت النيران إلى بعض المواد القابلة للاشتعال وامتدت إلى شحنات البارود التي أخذت تشتعل، مما أدّى إلى مصرع ستة من أصل سبعة حرّاس في هذا الحادث المؤسف. أدرك الوهابيون أن حدثاً قد وقع، فتسلقوا جدار الحصن، وعثروا على جثث ستة أشخاص، وقبضوا على من نجا وعسكروا بالقرب من الترعة.

وبعدئذٍ، أرسل سعود نصف جيشه إلى البصرة معتمداً الإجراءات نفسها التي اتبعت في الهجوم على الزبير، ولكنهم لم يكونوا أفضل حالاً، واقتصرت هذه الغزوة على سلب ونهب المناطق المجاورة للبصرة. إلا أن أحد رجالهم العارفين بالمنطقة كان قد التقى أخ شيخ قبيلة عربية تُدعى «منتفق» (عرب يقطنون



بالجوار من البصرة) وهو الشيخ منصور الذي قام بأسْره مع بعض أعوانه وأخذوه عند سعود الذي رحّب به كل الترحاب. حثّه زعيم الوهابيين على اعتناق مذهبه؛ ومنصور هذا الذي يفضل الحياة على الموت اليقين، لم يتردد في اتباع مشورته. فكتب المهتدي الجديد إلى أخيه يطلب منه الاهتداء إلى المذهب الجديد مثلما فعل هو. لكن هذا الأمر لم يكن سوى ذريعة أراد سعود من ورائها إضفاء الوعود البراقة لدفع حاكم الزبير إلى تسليمه هذه المدينة. إلّا أن محاولته فشلت، إذ أقدم حاكم الزبير على قطع أذن مبعوثه وطرده.

التدخل في مسقط

وفي ذلك الوقت، عمد آل جاسم [القواسم][*] وهم من العرب القاطنين على ضفاف الخليج «الفارسي» العربي، والذين كانوا يبشرّون منذ نحو ثلاث سنوات بالوهابية، إلى قتل إمام مسقط في اشتباك بسبب خلاف قديم حول جزيرة البحرين.

وبينما كانت هذه الأحداث تجري جنوبي بغداد، كان علي باشا يتقدم بخطى حثيثة نحو الحلّة لإنقاذ الزبير والبصرة؛ لكن الانسحاب الجديد للوهابيين أوقف تقدمه. وبناء على تقارير بعض

(*) القواسم عرق من أعراق العرب ينحدر من نجد وحسب تعريف فرانسس واردن امتلكوا إمارة صير في عمان وكانوا قبيلة مستقلة من العهود الأولى. يمتد إقليمهم على خط الساحل لتلك المقاطعة من مسندم إلى الزبارة أو جزيرة الشارقة باتجاه الشمال (راجع ماجد شبّر كتاب **القبائل والصراعات القبلية**، الوراق 2010، ص57. [معدّ البحث]



الأحداث غير السارة التي جرت في الدرعية، عمد سعود إلى الانسحاب بأقصى سرعة. ولما تأكد علي باشا من صحة الخبر، عاد إلى بغداد، حيث لم يمكث طويلاً.

وكان الباب العالي يحاول إقناع باشا بغداد لمهاجمة الوهابيين في الدرعية. فسار الباشا إلى الحلّة في شهر تشرين الثاني/ نوفمبر على رأس جيش جرّار انصياعاً لأوامر الباب العالي. ولكن إما بسبب صعوبة العثور على ما يكفي من المياه لقواته، أو لعجزه عن الحصول على الإبل اللازمة لحمل أمتعة المعسكر، تمّ تأجيل الحملة واكتفى صاحب الجلالة بإرسال سليمان بك، الذي هو الآن في منصب الكهية، على رأس أربع مئة رجل من النخبة بقيادة الشيخ فارس الجربا بمهمة استطلاعية في البلاد.

سارت كتيبة صغيرة إلى عين سعيد بعد الكثير من المصاعب. وكادت المدينة أن تتعرض إلى النهب، لولا فارس الجربا الذي كان له الفضل في نجاة سكانها والذي توصل إلى إقناع قائد الكتيبة بأنهم أصدقاء علي باشا رغم وهابيتهم. لذا، وخشية من أن يُقدم سعود على أي عمل مفاجىء، رأى سليمان بك أن الحِكمة تقضي بعدم التوغل بعيداً داخل المناطق الصحراوية، وتراجع مع رجاله بعد أن علِم من خلال زيارة قام بها العثمانيون إلى عين سعيد بأن سعود وصل إليها بعيد رحيلهم بثلاثة أيام إنقاذاً لرعاياه ولمعاقبتهم على تقاعسهم في إبلاغه في الوقت المناسب عن وصول قوات علي باشا. فجمع كبار قوم العرب، وحين أراد النيل منهم جزاء عملهم، تخلّى عنه العديد من القبائل بما يقرب الـ 10000 رجل الذين توسلّوا رحمة علي باشا. لم يرتبك سعود من سوء هذه



الحادثة. فمقاصده رمت صوب أماكن عمِل فيها طيلة عام لتسوية شؤون الحكم في مسقط. ساعد الوهابيين ابن سيف، شقيق الإمام الراحل، للاستيلاء على الحكم وطرد عمه، على الرغم من جهود أبناء المتوفى لخلافة أبيهم في الحكم. وكان الإمام الجديد على دراية تامة بأهمية العمل الذي قام به سعود نحوه، ووفاءً له كان يدفع له سنوياً مساهمة مالية ضخمة مدّعياً اعتناقه تعاليم عبد الوهاب.

وكانت بغداد، في غضون ذلك، تنعم بهدوء كبير في ظل الوهابيين لأسباب عدة؛ فمنهم من يعتقد بأن الفضل في ذلك يعود تارةً إلى انشغالات الناس المفترضةَ في المدن المقدّسة، وطوراً إلى الوباء الذي أهلك جِمالهم، وإلى المجاعة التي حلّت بهم، والهلع الذي دبّ فيهم من الهجرة الحديثة للشيخ الكبير شنمور الذي جاء على رأس 20000 رجل يقدم خدماته إلى علي باشا. بينما رأى الآخرون السبب في ما تردد حول سعود وظلمه لوالدته بنت الشيخ والإساءة اليها باستيلائه عنوة على حديقة دفعت ثمنها ما يقرب من 100000 قرشٍ؛ إلى جانب ازدرائه لوالديه بتوكيل الشيخ منصور(*) مهمة الإشراف على قصره وحظوته له بفضل حذاقته؛ وكان في الوقت نفسه قد دفع جميع وكلائه للاعتراف بابنه عبد الله خلفاً له، كان ابنه يسير على رأس جيش كبير

(*) هو الشيخ منصور بن ثامر ـ وهو الذي أخذته خيل سعود أسيراً في غزوة الدريهمية، فأراد سعود أن يضرب عنقه ثم عفى عنه، فأقام في الدرعية نحو أربع سنين ثم أذن له في الرجوع إلى أهله (**عنوان المجد من تاريخ نجد،** لابن بشر مخطوطة، مكتبة الملك عبد العزيز العامة 2002. [معدّ البحث].



لمهاجمة مدينة الإمام علي (النجف)، كما سار بنفسه على رأس قوات لا تقل عظمة باتجاه مكة والمدينة [المنوّرة]. في الواقع، تسبّب هذان العملان في إثارة الكثير من العداء له وأحدثا صدمةً لدى الجميع وأيقظتا الغيرة لدى الآخرين لمحاباته إخوته من زواج والدته الأول يوم اعتلائه الحكم ووفّر لهم الوظائف على شتى أنواعها بينما أبعد عنه أخوته ذوو الرحم وحال دون اعتلائهم مناصب لإدارة الشؤون العامة. والتأم جميع الساخطين ورأوا في شخص عبد الله، عمّ سعود الأبوي، الذي لم يكن قط من المعجبين بأساليب ابن أخيه، زعيماً لهم. غير أن هذه الفئة التي جرى طمأنتها، دون أن يعرف كيف، لم تمنع سعود ولا ابنه من خوض الحروب.

في شهر نيسان/أبريل 1806، وصل عبد الله (ابن سعود) ليلاً عند أسوار (مدينة) الإمام علي (النجف) دون أن يلحظ ذلك أحد. وكان هؤلاء الرجال قد بلغوا أعلى الجدار بواسطة السلالم، ونصبوا عليه أعلامهم عندما صاح أحد قادتهم دون تبصّر، يقيناً منه بالانتصار يلقي عليهم النصائح بإيجاز، مما أيقظ الحرّاس. فقرع ناقوس الإنذار وأسرع الجميع لحمل السلاح، وتم صدّ الوهابيين الذين مُنِيوا بخسارة فادحة. ولمّا أدرك عبد الله أن الإفراط في الثقة بالنفس أدّت به إلى ضياع مقصده، انسحب مع جيشه مسافة غير بعيدة عن المدينة. ولكن شيخاً جليلاً من شيوخ بلاد ما بين النهرين هاجم العدو مع النخبة من أتباعه العرب بكل جرأة وإقدام، تسانده نيران مدفعية مدينة الإمام علي (النجف). تقهقر الوهابيون أمام قواته الباسلة، يشهد على ذلك عدد القتلى



الذين تُركوا في ساحة القتال ويتراوح عددهم ما بين أربع مئة وخمس مئة قتيل. وبعد الهزيمة التي لحقت به هناك، أراد عبد الله التعويض عن الخسارة، وتقدم نحو السماوة. وكانت خطته تقضي بمفاجأة المدينة، ولكن أهلها كانوا له بالمرصاد، وكان الموت ثمن التهور لأكثرهم جرأة. ومع ذلك، حاصر المدينة لبضعة أيام، ولكن المحاصَرين قضوا على أكثر من 1000 ونيفٍ من رجاله في العديد من الهجمات التي قاموا بها، واختفى عبد الله مع قواته. وبعد الإذلال الذي لحق به إثر فشله في هاتين المحاولتين، قرر عبد الله أخيراً القيام بمحاولة ثالثة ضد مدينة الزبير كي يمحو انتكاساته ببعض الانتصارات الباهرة. لكن قواته فشلت للمرة الثالثة، وفي الهجمات التي قام بها للاستيلاء على هذه المدينة قَتل له الزبيريون أكثر من مئتي رجلٍ. وهكذا، عاد عبد الله إلى الدرعية يلفه العار مع بقية جيشه الذي قوبل بالإهانة، في حين انتصر والده في مكة المكرّمة.

مشاريع الوهابية في بلاد ما بين النهرين

لم يواجه سعود مقاومة تذكر إن في مكة أو المدينة (المنورة). وفور استيلائه على الأولى، تُليت باسمه الصلوات العامة وليس باسم السلطان سليم. وكان من المتوقع أن يؤدي ظهور سعود للمرة الأولى في المدينة المقدّسة إلى قيام ثورات في الإمبراطورية العثمانية، لا سيما وأن الوالي الكبير (الخليفة العثماني) يستمد شرعيته من سلطتة الكاملة على الأماكن المقدسة، وبالتالي لقبه كخادم الحرمين الشريفين، مكة والقدس. إلّا أن الإحساس الذي تولّد من جرّاء الاستيلاء على مكة المكرّمة لم يدم طويلاً، وما



خلّفه نهج سعود من أثرٍ قد تبدّد. ومهما كان أثر الاستيلاء على مكة ضعيفاً ومصيرها في كل مرة تستسلم فيها المدينة للوهابيين، فالمدينة وإن كانت تقع بين آنٍ وآخر فريسة الوهابيين، فالعثمانيون لا يرون ضيراً في احتلال هذا المكان أو أديمه اللعين الذي لن ينال من سلطة الوالي الكبير (الخليفة العثماني)، وهو الفاتح الذي يسعى دائماً إلى توسيع إمبراطوريته؛ هذا من ناحية، كما لا بد من الاعتراف من ناحية أخرى أنه عندما يسمح الوهابيون بمواسم الحج، فإنهم يجنون المال الوفير مما يودعه التعصب الأعمى من ثروات آسيا خلال هذه المواسم.

واستناداً إلى هذه النظرة العامة، من السهل التصوّر أن الوهابيين قد وضعوا نُصب أعينهم الاستيلاء على السهول الغنية في بلاد ما بين النهرين للإقامة فيها؛ وبالنظر إلى السلطة التي يتمتعون بها على الضفة اليمنى من الخليج «الفارسي» العربي، ومعاينة جميع أنواع التجارة التي يتعاطونها، والنفوذ الذي اكتسبوه في حكم مسقط منذ زمن قليل، وهم، وإن افتقروا إلى المهارة في فنون القتال، فهذا لن يحول دون سيطرتهم في يومٍ ما على هذا الميناء الهام، باذلين قُصارى جهدهم لاحتلال البصرة والاحتفاظ بها والتطلّع إلى بلدان أكثر ملاءمة كعُمان واليمن والمناطق الشرقية للجزيرة العربية لرفع صرح إمبراطوريتهم الناشئة، أضف اليها الأقاليم الجميلة الواقعة على ضفاف البحر الأحمر.

ضرورة احتواء قوتهم

وإذا ما قارنا بين ما آلت إليه الآن وما كانت عليه ماضياً،



وسعينا إلى التقريب بين زمن نشوئها وزمن تطورها ورِفعتها، نتبين أن أمة عظيمة تميّزت بسرعة انتقالها من شظف العيش في البوادي الجرداء ومن التقشف الذي تعتبره إحدى فضائلها الأولى، إلى جانب معاناتها الشاقة باستمرار، هي أمةٌ لا تقهر، جلّ ما تحتاج إليه هو معرفة الانضباط العسكري والحاجة إلى الدفاع عن نفسها والرغبة في إخضاع جيرانها ونسج علاقات تجارية مع الأوروبيين الذين لديهم اعتبار كبير عند قادتها. كل ذلك سيؤدي حتماً إلى نشوء إمبراطوريتهم؛ ولا يمكن أن يكون لديهم قادة أفضل من الوهابيين الذين أحيوا روح الغلبة والفتح عند شتى الطبقات، بالإضافة إلى إحياء ذكرى بأس العرب الغابر حتى في قلب الضعيف منهم والأمل في عودة زمام الحكم إلى أمراء من هذه الأمة. يقول وهابي بنبرة تنبوئية: «آن الآوان كي يجلس عربي على عرش الخلافة. لقد صبرنا ما يكفي تحت نير الغاصب».

ولِئَنْ أتيتُ على ذِكر هذه الواقعة، فالهدف منها تقييم مدى اهتياج الخواطر في هذه البلاد والطريقة التي يتعين علينا مقاربة الوهابية.

كان باستطاعتي التوسع أكثر عن الوهابيين، ولكن اسمحوا لي هنا إضافة مقالة عنهم انتقيتها من بين مجموعة أبحاث وضعتها خلال فترة إقامتي في حلب في العام 1805 بناء على طلب من السيد روسو الابن.

يَسهل علينا الادّعاء فرضية القضاء على المذهب الوهابي منذ نشأته، أي في الوقت الذي كانت لا تزال فيه الوهابية ضعيفة ويوم كان يختفي فيه أتباعها في بعض المنازل النائية لممارسة شعائرهم



الدينية، ويوم كان ديدَنها ليس التفكير في الفتوحات البعيدة، بل في سعيها القائم على الدعوة إلى الدين وحشد المهتدين ليس إلّا، وهذا أمرٌ بديهي ويكون من السخف إقامة البرهان عليه؛ كما أن الصراخ عالياً أن سياسة التراخي والإهمال التي اتبعها الأتراك سمحت بزيادة وتكاثر هذه الجماعة من المتعصبين، فهو أمر أشدّ سخفاً وغير ذي جدوى إن لم تتوفر الوسائل التي من شأنها القضاء عليهم. في الواقع، إن المسألة ليست في أسباب انتشار الوهابيين، بل في ما يتعيّن فعله لوقف تدفق الأسلحة إليهم وتوجيه ضربة قاضية للقوة التي يكتسبونها يوماً بعد يوم، وهذا ما أقترحُ القيام به هنا بعد عرضي بكل تواضع لوجهة نظري حول الفوائد التي يمكن أن تُجنى من حملة ضدهم يقوم بها علي باشا؛ ويشرّفني أن أقدم لكم بعض المخططات الأكثر تنسيقاً والجديرة بأن تحظى باهتمامكم الخاص.

كان الباب العالي قد أصدر مراراً عدة أوامر لسليمان باشا للانضمام إلى إمام مسقط والعمل على توحيد قواتهما لطرد هذه الملة المتطيّفة من بلاد اليمن. وكان الباشا يرتاب من فعالية هذا التحالف، ويختلق دائماً الأعذار للتملّص من إلحاح الصدر الأعظم. وكان قدّم فيما سبق لبلاط القسطنطينية شرحاً بيّن فيه استحالة مهاجمة الوهابيين بنجاح في الوضع الراهن. وفي نهاية المطاف، رأى أنه من الفطنة عدم الإفراط في مقاومة رغبات الوالي الأعظم (الخليفة العثماني) لأن في ذلك خطراً على حياته. وفي العام 1797 قرر إرسال الكهية لمحاصرة الإحساء. أما نتيجة هذه الحملة فكانت كما سردتها سابقاً. أخَذَ الباب العالي علماً بذلك؛



وعلى الرغم من هذه التجربة التي دفع بنتيجتها سليمان باشا ثمناً غالياً، عدا سداد رأيه حول عدم جدوى الحرب مع الوهابيين، إلّا أنه استمر على إلحاحه الشديد لمعاودة الكرّة مرة ثانية إلى حين وافاه الأجل؛ ومنذ أن أصبح والياً على بغداد خلفاً لسليمان باشا، لم يلتقِ علي باشا سوى قلّة من التتار القادمين من القسطنطينية من حَمَلة الرسائل من دون أمر صريح بتنفيذ الحملة. وبالنظر إلى شخصية علي باشا، وحماسته لدينه وتفانيه في تنفيذ جميع ما يُطلب منه، كان حقاً أكثرهم اقتداراً على محاربة عدوٍ نبيه؛ ولكن نظراً لصعوبة اجتياز المسافات البعيدة وعبور الصحارى القاحلة وتلال الرمال المتحركة، وبالاختلاف بين الأساليب الأسيوية في الحرب وتلك المتبعة عند الوهابيين، وبالنظر أيضاً إلى حياة الترف والرفاهية السائدتين في معسكر باشا بغداد، فإنه من الصعب على معاليه الانخراط إلّا بحذر في عمل في غاية الخطورة. ولكي يتسنى لكم الحكم على الأمور بوجه أفضل ومناقشتها بأسلوب منطقي، عليكم النظر إلى الوضع من زاوية عملية.

مسألة الجِمال (الإبل)

لنفترض أن باشا بغداد قام بالحملة بجيش قوامه 20000 رجلٍ، فسوف يحتاج إلى 60000 من الإبل قبل الشروع بها، في حين أن 10000 فقط من الإبل تكفي للعدد نفسه من الوهابيين. هذا الفارق، على شدّة حساسيته، يجب ألَّا يفاجئنا؛ وإن شرحاً مقتضباً يبيّن مدى صحة هذا العدد الذي لا مبالغة فيه:

لنفترض أننا اعطينا لكل جندي تركي ثلاثة من الإبل، واحدة



لفرسه، واثنتين للأمتعة والمؤونة لمدة ثلاثة أشهر، ناهيك عن قَفَل المدفعية أو الإبل المعرّضة للموت في الطريق؛ مع الإشارة أيضاً إلى أن الإبل في العراق وبلاد ما بين النهرين لا تحتمل مقاومة التعب والعطش أو الجوع كتلك الموجودة في اليمن. وسوف يتبيّن لكم صحة هذه الاحتمالات وحقيقتها. هذه العقبات، عند الإقرار بها هي وحدها كفيلة بردع الباشا عن القيام بحملته. وأنا لا أقصد من هذا القول أن نقف عند هذا الحد، وما أنوي عمله هو مرافقة معاليه في هذه الحملة خطوة خطوة لوصف مختلف الحالات وصولاً حتى أبواب الدرعية لاستخلاص النتائج المحتملة للنجاحات المتوقعة بسقوط هذا الموقع. لنفترض أن علي باشا، في قلب الصحراء، لا اتصالات فيها ولا ماء لتأمين حاجات جيشه الكبيرة، يصغي لهمسات رجاله عاجزاً عن تهدئة خواطرهم، هاجسه مرضهم وموتهم ولا وسيلة لديه للحفاظ على حياتهم. أما الوهابيون، فإذا ما تعرّضوا لقحط المياه يروون غليلهم، عند الحاجة، بقليل من دم الإبل التي يمتطونها، فيفصدون وريدها الذي يلتئم عند عدم استعماله مرة أخرى منه. وهكذا قبل أن يبلغ الباشا المكان المنشود، يكون قد فقد الكثير من جنوده. ولي أن أفترض أن قواته وصلت آمنة سالمة، فالسؤال: هل باستطاعة جيش غير منضبط، يتقاضى أجوراً زهيدة، ويعاني من سوء التغذية ونقص في السلاح، الاستيلاء على مدينة منيعة التحصين؟ أما إذا، على الرغم من كل هذا، قُدّر له السيطرة على المدينة، فما هي الفائدة التي سيجنيها من وراء ذلك؟

فلا كنزٌ فيها أو غنائم، الوهابيون يُخبّئون ثرواتهم في الجبال.



فضربُهم لأيسر من قهرِهم. إلا أنهم سيبذلون مقاومة شديدة عبر تشكيل قوات جديدة تطارده باستمرار لإعاقة انسحابه من المدينة دون إمكانية القيام بأي حسم عسكري؛ أو قد يجتذبونه إلى الجبال بعد إيهامه بالهرب إلى هناك ليحاصروا معسكره من جميع الجهات، ويسطوا على جميع وسائل الدعم من بغداد التي تبعد أكثر من 150 فرسخاً (600 كم)، له الخيار بين الاستسلام أو الهلاك. أما إذا قُيّض لعلي باشا القدرة واستطاع، رغم هذه العوائق، الإطاحة بهم وتشتيت شملهم كالسيل الجارف، يصبح الباشا ساعتئذٍ سيّد الصحراء؛ ولكن ما أن يغادر معاليه الصحراء ويعود أدراجه إلى بغداد، حتى تُستأنف أعمال اللصوصية كالسابق وبنفس الرعونة والإفلات من العقاب. وفي المحصّلة، ستكون هذه الحملة التاريخية برهاناً ساطعاً على فِطنة علي باشا ومهارة قيادته فقط. لنعد الآن بعد عرضنا هذا، إلى الخطط التي وعدتكم بها.

خطط لشنّ حملة مشتركة لباشاوات بغداد وسوريا ومصر تحت سلطة أوروبية معنوية

الخطة الأولى، وهي أكثر حيطةً وحكمة والأنسب لشؤون بغداد السياسية، وهي تقضي بأن يكون في موقع الدفاع، وتحصين مدينة البصرة تحصيناً منيعاً كما والأماكن المعرّضة لإهانات الوهابيين، وبناء معاقل صغيرة حيث تتطلب السلامة العامة. فأخذُ الحيطة من شأنها طمأنة العرب الذين ترتعد أوصالهم بمجرد ذكر اسم الوهابيين، وهذا ما يُحبط همّة أولئك الذين أينما ذهبوا سيواجهون مقاومة شديدة ويتلقون الهزائم ويحصدون الخسائر. كما أنه من الملائم أن يمتلك قوة بحرية في الخليج «الفارسي»



العربي من شأنها إخضاع السكان العرب المجاورين الذين أخافهم الوهابيون أو أنهم، لاعتبارات تجارية، تراهم ابتعدوا عن المحمدية [الإسلام] وأقلعوا عن الاعتراف بعلي باشا سيداً عليهم. وما ذكرنا هنا عن الموقع الدفاعي يمكن تطبيقه على جميع البلدان المتاخمة لسلطة الوهابيين.

الخطة الثانية تقضي بأن يسيّر جيشاً من عشرة آلاف رجل مزّود بالمؤن تزويداً جيداً، سالكاً الطريق نفسها في مسيرته نحو الإحساء بشرط أن يكون بقيادة الكهية. فالباشا لا يمكنه الابتعاد مسافات بعيدة عن العاصمة أو أن يقوم بحملة كهذه تتطلب وقتاً طويلاً من دون أن يخشى حدوث أي تمرّد عليه؛ كما سيلزم حضوره هناك لجمع الضرائب وبناء المخازن في البصرة لإرسال الإغاثة ودعم للجيش. وبموازاة ذلك، يتقدم باشاوات سوريا ومصر والشاطئ الشرقي للبحر الأحمر على رأس قوات تتوزع في محيط مكة المكرّمة. هذا وينبغي لجيش بغداد، بعد تبلّغه عدد الأيام التي سيستغرقها وصول القوات إلى الدرعية وساعة الصفر للسير إليها، التأهب اللازم لاجتماع الجيشين اختصاراً للوقت والأثمان. تقع الدرعية على مسافة 600 كم من مكة، وأكثر من 240كم من الإحساء؛ ويمكن بسهولة تأمين اللقاء بواسطة رجال الاستطلاع. أما الجيوش مجتمعة فتكون بقيادة عبد الله باشا والي دمشق. ومما لا شك فيه أن مثل هذه الإجراءات ستؤمن نجاح هجماتهم والأمل الأكيد في الاجتماع بزعيم الوهابيين حول طاولة المفاوضات.

أما الخطة الثالثة والأخيرة فتقوم على استخدام النفوذ الأوروبي بأن تقدِّم بداية إحدى الدول الأوروبية اقتراحاً على هؤلاء



المتعصبين يتضمن شروط سلام وتحالف بضمانة الوالي الكبير [الخليفة العثماني]، وإذا رفضها الوهابيون، فستكون العاقبة حرباً عليهم. وفي رأيي، سيكون إعلان الحرب هذا أشدّ وطأة عليهم من حشد جيشٍ تركي قوامه 40000 على أبواب الدرعية.

بغداد، 10 تموز/يوليو 1806
جان ريمون
(ضابط المدفعية السابق)



الفصل الثالث

تقرير القنصل الفرنسي في بغداد
جان لوي روسّو 1809 ـ 1224

ترجمة وتعليق
خالد عبد اللطيف حسن




مكتبة
الفكر الجديد

القسم الأول

نبذة مختصرة عن حياة روسّو وعائلته

بقلم المترجم:
خالد عبد اللطيف حسن[*]

ينتسب روسّو إلى عائلة الأديب والكاتب الفرنسي المشهور جان جاك روسّو، وهي عائلة غنية عن التعريف. وسبق لأبيه لوي جاك روسّو (1738 ـ 12 مايس/أيار 1808) أن خدم المصالح الفرنسية، ممثلاً لبلاده، بصفة قنصل، في كل من إيران والعراق وسوريا حتى وفاته، حينما حلّ ابنه محلّه قنصلاً لفرنسا في حلب بين (1808 ـ 1814)، ثمَّ في بغداد من سنة 1814 حتى وفاته في سنة 1831 بطرابلس[1]. جان بابتيست لوي روسّو وله مؤلفات عديدة، منها:

1 ـ رحلة من بغداد إلى حلب، سنة 1808.

2 ـ رحلة إلى الجزيرة العربية، سنة 1808.

(*) نشر هذا الفصل ضمن كتاب وصف باشوية بغداد عام 2012، بيت الحكمة بغداد. [معدّ البحث].

(1) Universal. **Promouncing Dictionary of Biography and Methology**, Vol.2, p.1924.



3 ـ وصف باشوية حلب (بصدد الترجمة).

4 ـ رحلة من حلب إلى بغداد، سنة 1807 (غير مترجم)، وغير ذلك.

5 ـ مذكرة في الطوائف الثلاث المشهورة في الإسلام: الوهابيون، النصيريون، والإسماعيليون، 1818 (بصدد الترجمة).



مانيستي يتولى شؤون الوكالة الإنكليزية بعد مالكولم

كان للإنكليز، الذين أمضوا وقتاً طويلاً في البصرة، وكالة تجارية ومقيمون يتقاضون أُجوراً عالية. وأحد هؤلاء السيِّد مانيستي[1]، الذي تمَّ إرساله إلى بلاط فارس منذ ثلاث سنوات بعد الفراغ الذي خلَّفه سلفه في الوظيفة نفسها، السيِّد

---

(1) في 12 أكتوبر/تشرين أوَّل سنة 1804م أرسل روسو من حلب رسالة إلى وزير خارجية فرنسا يخبره فيها أنَّه أطلع صديقه الحميم، مجتهد أصفهان، بصدد رغبة نابليون بتبادل الرسائل مع شاه إيران، وأنَّ شيخ الإسلام ردَّ بأنَّ الشاه ليس مرتاحاً من التردُّد الدائم لممثلي بريطانيا في بلده، وقد أخبره ممثل البريطانيين مانيستي بأنَّه ليس مستعدّاً لتعريض مصالح بلاده والاتفاقيات مع شركة الهند الشرقية إلى الخطر، وأنَّه لا يجد دليلاً مقنعاً لإعادة علاقات بلده مع حاكم قندهار. وقد اقترح روسو أن ترسل الحكومة الفرنسية وفداً إلى إيران لإيجاد اتحاد واتفاق مع قندهار. وممَّا تجدر الإشارة إليه هو أنَّ رغبة إيران في التقارب مع فرنسا ترجع إلى الحروب الروسية الإيرانية في عهد فتح علي شاه ومحاولة الشاه الحصول على حلفاء أقوياء يساعدونه في حروبه هذه ضدّ عدوّه الروسي. وممَّا لا شكَّ فيه أنَّ نشوب الحرب بين نابليون وروسيا القيصرية سنة 1805 أصبح عاملاً لتقارب إيران مع فرنسا، لأنَّ هاتين الدولتين يجمعهما عداء مشترك لروسيا القيصرية. حسن الجاف، ص190 [المترجم]..



مالكولم[1]، الذي توفي بعد وقت قصير من توليه منصبه، ولم يثبت جدارة في منصبه. وقد وجد السيِّد مانيستي نفسه الآن يحمل أعباء إدارة شؤون الشركة وحده. وهو رجل موهوب ولا تنقصه الخبرة والفكر المستنير، واستطاع أن يرفع رواتبه إلى نحو أربعين ألف قرش في السنة. ولكن فضلاً عن ذلك، فقد خصصت له فوائد بنسبة (5 ـ 6%) على جميع المصروفات التي يقوم بها لحساب موكليه. ولديه حرس من السباهية كما هو حال القنصل في بغداد. وازداد ثراؤه، وكان همَّه الرئيس إبقاء الاتصال المنتظم مع الممتلكات الإنكليزية في البنغال وعلى جانبي سواحل شبه الجزيرة الهندية. فهذا الطريق أقصر الطرق جميعها، وكان قبل بداية الحرب الأخيرة مع بريطانيا العظمى مثار شؤم للفرنسيين. بيد أنَّ حكومتنا السابقة كانت متحفظة جداً إزاء النفقات الباهظة، ولم تهيِّىء موظفيها لاتخاذ إجراءات مماثلة لإرسال البرقيات العاجلة إلى مستعمراتنا بالمقاييس التي تؤمن النقل. وطبقاً لهذا المنهج الاقتصادي، غالباً ما كان

(1) من الجدير بالذِّكر هنا هو ما نشاهده من اختلافات محسوسة في هذه المرحلة الزمنية بين سياسة شركة الهند الشرقية البريطانية في الهند وبين المسؤولين في وزارة الخارجية البريطانية. ويبدو بوضوح بأنَّ السير هارفورد جونز كان له دور في إصرار فتح علي شاه بعدم مقابلة مالكولم. وممَّا يُؤيِّد هذا الخلاف أنَّه في الوقت الذي أرسل اللورد مينتو السفير مالكولم إلى البلاط الإيراني انتدبت وزارة الخارجية البريطانية السير هارفورد جونز سفيراً للحكومة البريطانية عن بلاط الشاه القاجاري. موريه جيمس جوستينيان، رحلة عبر فارس وأرمينيا وآسيا الصغرى إلى القسطنطينية سنة 1808 و1809، لندن، 1802. حسن الجاف، ص225، هامش رقم (80). [المترجم].



أعداؤنا المُستأجرون يعيقون شحناتها. وحينما لا يستطيع حاملوها حمايتها يذهبون ضحية لها. والمعروف أنَّ الإنكليز باغتوا بوندشيري بعد أن نقل قنصلهم في البصرة إلى بومباي البرقيات المحجوزة للحكومة الفرنسية، التي كانت تبلغ حاكم بوندشيري بإعلان الحرب، بعد أن لم يكن لديه علم بذلك سوى مذكرة التبليغ التي فاجأته باستعادة هذا الموقع[1].

مانيستي يحظى باحترام أحد شيوخ الوهابية:

استطاع السيِّد مانيستي كسب محبة واحترام أحد شيوخ الوهابية[*]، من خلال أساليبه البارعة وحضوره الدائم، وقدَّم له الخدمة التالية:

احتجز العرب في البادية إحدى رسائل السيِّد مانيستي، وبسرعة اشتكى هذا إلى الشيخ، فقام بالتحرّي، وبعد أن عثر على مرتكب السرقة، قطع رأسه وغمس يده بدم المسكين وبصمها على الرسالة التي أعادها وأرسلها إلى القنصل الإنكليزي، وكتب له بأنَّ البصمة التي يجدها عليها كفيلة بالتعبير عن إخلاصه ودليل على اهتمامه في معاقبة كل من يجرؤ على سرقة مراسل القنصل واحتجاز رسائله. وسأنتهز الفرصة للتحدث ببضع كلمات عن الوهابية لقربهم من البصرة، وطموحهم الدائم بالاستيلاء عليها، بما يسمح لي بالتحدث عن مختلف محاولاتهم حتى الوقت الحاضر للسيطرة

---

(1) الملاحظة التي سنأتي على قراءتها هي ملاحظة رحّالة حديث وهي صحيحة.

(*) إن الشيخ الذي كانت له علاقات مع مانيستي هو الأمير عبد العزيز بن سعود. راجع الصفحة 89 من هذا الكتاب.. [معدّ البحث].



عليها. وأصل هذه الطوائف وغزواتهم أحد مواضيع مذكراتي التي أعقبت هذا الموضوع، إذ لم أكتب هنا رواية مفصَّلة إطلاقاً. باختصار، فإنَّ تلك القبائل الرُّحل لم تكن في بدايتها سوى مجموعة من العوائل البائسة التي تكاثرت بسرعة من خلال الانضمام المستمر للقبائل البدوية المختلفة المنتشرة على امتداد الصحراء العربية، بحيث أصبحت جميع المناطق الشاسعة الخاضعة لإمام مسقط، وسواحل الخليج الفارسي «العربي»، وجزر البحرين خاضعة لسيطرتهم اليوم، ولم يمنعهم شيء من الاندفاع نحو وادي الرافدين لنشر الرعب حتى أبواب القسطنطينية. ويتمتع زعيم هذه القوَّة الجديدة بصلاحيات مطلقة، ويطيعه رعاياه طاعة عمياء، وكلمة واحدة منه تكفي لتسيير آلاف المقاتلين المعتادين على إراقة الدماء، المتعطشين للنهب، غير المبالين بالموت أو بالمخاطر، اعتقاداً منهم بنيل شرف الشهادة وهم يحملون السلاح دفاعاً عن عقيدتهم.

السلطان الأعظم [الخليفة العثماني] يأمر باستئصال شأفة الوهابيين:

يجب أن لا نشك في أنَّ هؤلاء الرجال، المتعصبين والمتحمسين للغزو، الأشداء في المصائب، المتعودين على كل أنواع الحرمان، أصبحوا متمرسين على الالتزام والتنفيذ، وليس لديهم نظرة لمشاريع الغزو التوسعية. وبمرور الزمن ومساعدة سلاح المدفعية الذي بدأوا يستخدمونه، كما يشاهد من خلال قطع المدفعية الثلاثة التي سحبت إلى الموقع الأخير أمام [مدينة] الإمام علي (النجف)، فإنَّهم لم ينجحوا في فرض سيطرتهم على جميع



البلاد العربية ووادي الرافدين. وهكذا، سنرى، فجأةً، ظهور مملكة جديدة من رمال أرض العرب، جديرة بزرع الرعب لدى القوى الآسيوية الأُخرى، وبلفت انتباه ملوك أوروبا نحوها. لقد كلَّف السلطان الأعظم علي باشا، عدة مرَّات، باستئصال شأفة الوهابيين والذهاب بنفسه إلى عقر دارهم وداخل مملكتهم. لكن هذا الوزير الحذر يدرك الصعوبات التي ستواجه هذه الحملة، ومن خلال نظرته الثاقبة كان يتملَّص بحجَّة عدم جدوى هذه الأساليب. والواقع أنَّه كان يريد كبح جماح قطاع الطرق هؤلاء ووضع حدّ لأعمالهم التخريبية، وهو مشروع لا يفوق قدرة والٍ بسيط فحسب، وإنَّما يفوق قدرة الجيوش العثمانية مجتمعة أيضاً.

ويساورني الشك أنَّ بمقدور أي دولة أوروبية تحقيق نجاح على الوهابيين ما لم تشترك معها الكثير من القطعات في مهاجمتهم من كُلِّ الجهات، التي ستتعرض للإبادة هي أيضاً إذا ما جازفت بملاحقتهم، في حال عدم تأمين الاتصالات ونقاط الاتصال عبر صخورهم والصحاري الجرداء.

سليمان باشا يرسل الكهية علي لمواجهة الوهابيين:

أثناء عهده، قام سليمان باشا بإرسال الوالي الحالي علي، لمواجهة الوهابيين، ولكن القسم الأكبر من جيشه هلك قبل وصوله الإحساء، بسبب قلَّة المؤونة، ونقص المياه، والحر الشديد لفصل الصيف. فعاد إلى بغداد بسرعة، بعد حملة طويلة بائسة كلَّفت الوالي أكثر من مليون قرش دون فائدة تذكر.

وفي هذا العصر، ظهر الوهابيون عدَّة مرَّات مقابل البصرة، إلَّا



أنَّ عرب الزبير والمنتفك كانوا يردّونهم دائماً، فقد دفعت لهم الحكومة معونة مالية سنوية تقدَّر بمئة ألف قرش للدفاع عن هذه المدينة. وبالنتيجة، هناك إشارات تفيد أنَّ خطط هذه الطوائف، التي تنوي مباغتتهم من البر، قد فشلت، إلَّا أنَّهم تمكنوا بسهولة من استعادة سيطرتهم عليها. فذات مرة، فكروا بضرورة الهجوم عبر شط العرب بمساعدة الجواسم [القواسم]، وهم عرب اعتنقوا الوهابية قبل مدة قصيرة، ويسكنون الساحل الجنوبي للخليج ويمارسون اليوم القرصنة الخطرة على امتداد البحر.

والحقيقة أنَّ الوالي جهز البصرة باثنتي عشرة بطارية مدفع كانت مخصصة لحماية السفن التجارية من الهجوم. لكن هذه القوَّة القليلة لم تكن كافية لمنع الهجوم الذي ينوي الوهابيون شنَّه، والذي ربما يترك أثراً بالغاً في الحكومة التركية إذا ما أقدموا على تنفيذ ذلك[1].

الشاه إسماعيل يأمر بتعمير ضريح الحسين:

وخلال هذا العصر، أصدر الشاه إسماعيل[2]، مؤسس

---

(1) **وصف باشوية بغداد**، سنة 1809، ص37 ـ 42. [المترجم].

(2) ولد مؤسس الدولة الصفوية الشاه إسماعيل في سنة 1486م، وتمكّن من استغلال ضعف دولة الخروف الأبيض وقضى على حكمهم إلى الأبد، ودخل مدينة تبريز معلناً نفسه شاهاً على إيران. وكان لظهور الدولة الصفوية على يده أثر كبير في النواحي السياسية والاجتماعية والدِّينيَّة لا في إيران فحسب، وإنّما في العراق وتركيا وأفغانستان والهند أيضاً، فرضه التشيُّع الاثني عشري على الإيرانيين قسراً وجعله المذهب الرسمي لإيران. حسن الجاف، ص18. [المترجم].



السلالة الصفوية في بلاد فارس (الذين يطلق عليهم بالعامية الصفويون)، والذي أدخل المذهب الشيعي في أرجاء بلاده، أمراً ملكياً بتعمير وتجميل المدينة وضريح الإمام أيضاً. وقد اتبع ملوك الطائفة نفسها، الذين تولوا العرش بعد إسماعيل، الحماس والورع نفسه تجاه الحسين. وأصبح هذا الورع مثالاً يتبعه الملوك اللاحقون الذين حكموا بلاد فارس، وكل منهم يأمل، من خلال الهدايا الثمينة، التعبير عن خالص إجلاله لابن النبي الصغير، لدرجة أنَّ مسجد ضريح الحسين أصبح مستودعاً لأنفس محتويات خزائن هؤلاء الملوك. وكما هو معلوم، فإنَّ الخصي محمد آغا خان أنفق خلال نحو اثنتي عشرة سنة خمسة ملايين قرش لإكساء الطابوق بالنحاس الذهبي، وأنفق مبلغاً مساوياً لمنائر وقبَّة [مسجد] الإمام الحسين.

ومنذ مدة طويلة أصبحت الثروات الهائلة التي تكدست تدريجياً في حرم الإمام الحسين هدفاً لطمع الوهابيين وجشعهم، وبدأوا يفكرون بنهبها دوماً، معلقين أمالاً كبيرة لإنجاح مشروعهم، بحيث إنَّهم، عندما يريدون التحدث عن يوم سعدهم وفرحهم، يقصدون اليوم الذي يسيطرون فيه على هذا الموقع المغري جداً بكثرة الكنوز التي يضمها بداخله.

مجزرة كربلاء:

أخيراً، جاء اليوم المحدَّد الذي كانوا يتمنونه كثيراً، ففي العشرين من نيسان/أبريل سنة 1801[1] ، باغتوا المدينة بينما كان

(1) في سنة1801م أغار الوهابيون على مدينة كربلاء بقيادة سعود بن عبد العزيز، =



معظم سكَّانها قد ابتعدوا عنها لعدة فراسخ لأداء مراسيم الزيارة لضريح والد سيِّدهم، فأضرم هؤلاء البرابرة النيران وسفكوا الدماء فيها. وبعد هذه الغنيمة الكبيرة، التي تُعدُّ انتصاراً لا نظير له [من وجهة نظرهم]، انسحبوا بهدوء شديد دون أن يتمكن حاكم بغداد، الذي علم بخبر هذه الكارثة المفاجئة، من تعكير انسحابهم. فقد جاؤوا بقوَّة قوامها خمسة عشر ألف [مقاتل]. وكانت القسوة التي ارتكبوها فظيعة جداً، فلم يسلم الشيوخ والنساء والأطفال منها، فقد أبيد الجميع بالكامل بسيوفهم التي لا ترحم. وخلال هذه المجازر بقروا بطون الحوامل، وذبحوا بأيديهم الملطخة بالدم ثمرات أكبادهن إرباً إرباً. ومن حسن حظ المؤمنين أنَّهم هربوا من هذه المجزرة الرهيبة ليحافظوا على حياتهم في بغداد. وقد رأى بعض الناجين هؤلاء المتوحشين يشربون دماء ضحاياهم المساكين. وقدِّر عدد القتلى في هذه الكارثة الفظيعة بأكثر من أربعة آلاف شخص. وعند خروجهم من [مدينة] الإمام الحسين (كربلاء)، التي حاصروها على مدى نهارين وليلتين، اقتاد الوهابيون مئتي بعير محمَّلين بالغنائم النفيسة. ولم يكتفوا بصبِّ جام غضبهم على الأهالي، فقاموا بهدم البيوت أيضاً، وجعلوا المسجد الثري للإمام مزبلة للقاذورات والدماء وألحقوا أضراراً بمنائر وقباب المسجد

= وقتلوا أغلب أهلها في الأسواق والبيوت وهدموا قبَّة مرقد الإمام الحسين عليه السلام، ونهبوا جميع ما في المدينة والمرقد الشريف من أموال وسلاح ومال وفضة وذهب. وسميت هذه الغارة بحادثة الطَّف الثانية. **ميزوبوتاميا، العدد 5، موسوعة المدن العراقية**، مطبعة إيلاف، بغداد، 2005، ص283 ـ 284. [المترجم].



بعد أن استولوا على طابوقها المطعم بالذهب الخالص. وما أن عرفوا أنَّه نحاس ذهبي حتى هدموا تلك الصروح بالكامل، فأنقاضها لا تمثل لهم أي شيء[1].

---

(1) **وصف باشوية بغداد سنة 1809م**، ص58 ـ 60. [المترجم].



القسم الثاني

عرض موجز عن طائفة الوهابيين

علينا أن نفهم بأن القوة الوهابية الحالية، التي ظهرت قبل نصف قرن وعرفتها الدول المجاورة قبل مدة قصيرة، ستتحول بالتأكيد إلى إحدى أعظم الممالك في المستقبل. وقد تحدث عنهم السيد نيبور والرحّالة الآخرون في رحلاتهم ووصفوا مآثرهم بدقة حينما ذكروا بأنهم طائفة غامضة تعيسة معزولة في إحدى زوايا الجزيرة العربية. وحينما تكاثر أتباع هذه الطائفة، غير الملفتة للاهتمام في بدايتها، تمكنوا من إخضاع جميع قبائل البادية العربية تقريباً بغزواتهم السريعة، وأصبحوا على درجة عالية من التفوق والشهرة، حتى أخذ اسمهم ينشر الرعب والذعر من ضفاف الخليج الفارسي حتى حدود سوريا والجزيرة. ولو أمعنا النظر في أصلهم وعقيدتهم وحياتهم القاسية المضطربة، وتعصبهم، وطموحهم الشديد، وولعهم بالغزو، فسرعان ما سندرك بأنهم ينحدرون من القرامطة[*][1]، وهم قوم شجعان محاربون يتبعون النهج ذاته،

(*) انظر هامش في الصفحة 52 أعلاه، وللمزيد راجع هانس هالم، **إمبراطورية المهدي**، الوراق، 2013. [معدّ البحث].

(1) للتفاصيل عن حركة القرامطة انظر: الجزء الرابع من كتاب تاريخ ابن خلدون المسمى **ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي** =



سببوا نكسة للدين المحمدي في عهد الخلافة العباسية، وزرعوا الرعب في إمبراطورية العرب. يا قرائي: حينما راجعت تاريخ هذه الطوائف المشهورة في المكتبة الشرقية لهيربيلوت، لاحظت بأن خلفاءهم الوهابيين ليسوا أقل حماسةً وقسوة وقوة منهم. ويبدو أنهم بدأوا، بهذا الشعور من التوسع والاستعلاء، بالتخطيط للسيطرة على مسرح الأحداث في آسيا، والسير على خطاهم [القرامطة]، ومعاودة السلب، ونشر مبادئ عقيدتهم إلى أبعد ما يمكن، وفرض سيطرتهم بالحديد والنار. وقد أخذت فاعلية أساليبهم لتحقيق تلك الأهداف تتزايد يوماً بعد يوم، ولم تترك نجاحاتهم مجالاً للشك بأنهم يخططون لشن غزو شامل بكل إصرار.

ومن إقليم اليمن، الموطن الذي انتشرت منه جميع القبائل العربية لتغطي الصحاري الشاسعة في جزء من قارتي آسيا وأفريقيا، نثرت طائفة القرامطة هذه رمادها، واتخذت اسم والد مصلحها، الشيخ محمد، المتحمس للعقيدة التي أسسها عبد الوهاب بن سليمان، الذي كان ينتمي لقبيلة نجد الصغيرة(*)، التي كانت جزءاً من قبيلة تميم المتنقلة الكبيرة. وجمع [في صفاته] ما بين الجرأة والحذر والمهارة الفائقة، لإقناع أتباعه، باستخدام أسلوب

الشأن الأكبر، الصادر عن دار الفكر، بيروت، 2000، ص15، 110 ـ 118. [المترجم].

(*) ينتمي الشيخ محمد عبد الوهاب الى المشارفة، من الوهبة من بني تميم أحد أكبر القبائل العربية، وهم من سكّان نجد، وليس هناك قبيلة اسمها قبيلة نجد بل هناك قبائل نجدية. [معدّ البحث].



المسيطر، من أجل إخضاعهم وإثارة روح الحماسة فيهم، وهي مهارة ضرورية لكل مشرِّع يسعى إلى إصلاح الأمة وادعاء النبوة(*). وهذا التقليد شائع في بلاد العرب.

حلم سليمان يتحقق

كان الراعي الفقير سليمان قد رأى في منامه شعلة خرجت من جسده وانتشرت في السهول وأهلكت كل من اعترض طريقها. فاستيقظ من هذا الحلم فزِعاً وطلب من بعض المنجمين تفسيره، فأخبروه بأن ولده سيصبح مؤسساً لدولة قوية جديدة وسيخضع جميع عرب البادية لحكمه. وتحقق الحلم فعلاً، ولكن ليس لعبد الوهاب بن سليمان، وإنما لحفيده الشيخ محمد.

وسواءً كان هذا الحلم حقيقة أو من ادعاء الشيخ محمد، فمن المؤكد أن هذه الطائفة الماهرة عرفت كيف تحقق مآربها بعد أن زرعت ذلك الحلم في نفوس أتباعها ونجحت في إقناعهم بأنه ينحدر، مباشرة، من الأصل العربي الذي حمل اسمه. وقد أسهم الادّعاء الأخير في زيادة شهرته بشدة، وشاع بين المسلمين أنه ينتمي إلى أشرف وأطهر عائلة ينتسب إليها نبيهم(**). وبذلك رسّخ

(*) لم يدَّعِ الشيخ محمد بن عبد الوهاب النبوّة، ومحمد رسول الله هو خاتم الأنبياء والرسل. [معدّ البحث]

(**) لم يدَّعِ الشيخ عبد الوهاب أنه من نسل الرسول محمد ﷺ أي هاشمي بل هو معروف النسب ينتمي الى قبيلة تميم، حيث أكثر ما تحفظ وتحافظ على أنسابها القبائل والعوائل العربية في الجزيرة العربية عموماً وفي نجد خصوصاً. [معدّ البحث].



عقيدته بدهاء، متصوراً أنها تفيده في تحقيق ثروته وطموحه. وأخيراً، أدرك غايته بعد أن جعل أتباعه ينظرون إليه وكأنه المنقذ الذي اختارته السماء.

وتستند العقيدة التي دعا إليها الشيخ محمد إلى تعاليم القرآن، وهو كتاب يدّعي بأن الملائكة كتبته في السماء(*)، ويفسره كيفما يشاء وبحسب أهوائه، بطريقة مختلفة عن تفسيرات المسلمين تماماً. وهو يعتبر أن مؤلفه ليس سوى أداة سخرها الله ليعرف البشر قدراته.

وهو لا يعترف سوى بهذا الكتاب، ويرفض ذلك الكم الهائل من الأحاديث التي تعتمدها الطوائف المحمَّدية. وبالنتيجة، فهو يرى نفسه مصلحاً محمَّدياً[1] وليس مؤسساً لعقيدة جديدة. من هنا، يمكننا أن نستنتج بأن الوهابية لم تأتِ

(*) يؤمن جميع المسلمين بأن القرآن كتاب الله وقد أنزل على الرسول محمد ﷺ. [معدّ البحث]

(1) الدين المحمدي (Mahometisme): استخدم الرحّالة المستشرق مصطلح الدين المحمدي بدلاً من الإسلامي. فالاستشراق منذ نشأته حتى اليوم يدور حول موضوع الدين، ولا يمكن النظر إلى الاستشراق من غير الإشارة إلى علاقته بالتبشير، ومعرفة ما يجري بين الإسلام والمسيحية الغربية. ولقد عرف الاستشراق من ذلك الركام الهائل الذي تركته القرون الوسطى حول النبي محمد ﷺ. وهو بذلك أطلق على المسلمين اسم (محمّديين) لكي يجعل محور الإسلام رجلاً لا عقيدة، ولكي ينفي في النهاية عن الإسلام صفة الدين. فبدون الوحي يصبح المسلمون أتباعاً لرجل وليسوا أتباعاً لرسالة. أميرة الزين، **الاستشراق** (إدوار سعيد)، **شؤون عربية**، العدد 6، الأمانة العامة لجامعة الدول العربية، تونس، 1981، ص270. [المترجم].



بشيء جديد، وإنما الدين ذاته الذي أشار إليه القرآن بعد إعادته إلى نقائه الأول.

[وتتركز مبادئ الوهابية على] ضرورة الاعتراف بوحدانية الله، الباقي، القادر، العادل، الرحيم، الذي يجازي المحسن ويعاقب المسيء، وعلى تطبيق أركان العقيدة التي يدرِّسها على وفق كتاب الله، القرآن. فهذه هي أسس الوهابية. أمَّا عن [النبي] محمَّد، فالمصلح يعدّه رجلاً حكيماً أو حبيب الله لا أكثر، ويمنع كل مظاهر الإجلال التي يظهرها المسلمون له، ويرفض بالشدة نفسها تبجيل المسيحيين واليهود والأتراك [المسلمين] للأنبياء، معلناً أن الله يغضب من طريقة العبادة هذه التي يوليها البشر لهذه المخلوقات البسيطة التي خلقها بيده، ولا يربطها مع جوهره الأبدي شيء مشترك، فليس هناك ما يميّزه عنا. وقد أرسله إلى الأرض ليقضي على عبدة الأصنام وليقود شعبه إلى الطريق المستقيم. وأضاف بأن بعض المسلمين يتشددون ضد هذه التعاليم ويصرون على عماهم، لذا يجب أن ينظر إليهم ككفار وملحدين يستحقون القتل، ولابد من إبادتهم جميعاً لأنهم يهينون الذات الإلهية ويجعلون لله شركاء، فالخلق من صفاته وحده.

بداية الدعوة والتقاء الشيخ محمد بابن سعود

بدأ الشيخ محمد دعوته السرية بالإرشاد، وجمع حوله بعض الأنصار، لكن أعدادهم كانت محصورة ضمن نطاق قبيلته المتنقلة. وكان يشعر بالراحة وبحاجته إلى قوة أكبر ليجاهر بمبادئ عقيدته



وينشرها إلى نطاق أبعد. فخرج من اليمن وجاب الكثير من المدن والأقاليم التي يسقيها نهر الفرات وسوريا، على أمل أن يلقى الترحاب والحماية من بعض الرجال المتنفذين القادرين على مدّ يد العون لتنفيذ مشروعه، بأموالهم وأسلحتهم. فرفضته مكة ودمشق وطردته بغداد والبصرة، فعاد إلى جزيرة العرب خائباً بعد غياب استمر ثلاث سنوات، فوجد لدى ابن سعود[1] أمير الدرعية والإحساء[2]، الأمل الذي كان ينشده. فقد استقبله هذا الزعيم العربي بحرارة وقدّر آراءه، وأصبح، كما سنرى لاحقاً، من أكثر المتحمسين للوهابية. وبذلك، يمكننا القول بأن الشيخ محمداً يعد أول مصلح كذّب القول المأثور: لا كرامة لنبي في بلده.

قبل المضي قدماً، أرى من الضروري أن أتوقف قليلاً عند ابن

---

(1) هو الأمير محمد بن سعود [المترجم]

(2) الدرعية: منطقة في ناحية العارض بإقليم نجد ببلاد العرب، على طريق القوافل الذي يمتد من البحر الأحمر إلى الخليج العربي. وكانت بيوتها جميلة البناء مشيدة بالحجر، وتقع عند سفح تلال مرتفعة في واد ضيق، ويخترقها وادٍ صغير (وادي حنيفة)، وتسكنها عدد من القبائل، منها قبيلة عنزة الكبيرة. وقد بلغت أوج ازدهارها عندما أصبحت في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل التاسع عشر عاصمة المملكة الوهابية. ويعدّ رينو (Reinaud) الأوروبي الوحيد الذي زارها إبان مجدها، وهو رجل إنكليزي قام بزيارة الحاكم عبد العزيز في نيسان (ابريل) سنة 1805 مبعوثاً سياسياً من لدن مانيستي، المقيم الإنكليزي في القرين على الشاطئ. وقد رآها الكابتن سادلير بعيد تخريبها. ذلك أن الحكومة الهندية أوفدته ليقدم احترامها لإبراهيم باشا في معسكره بالدرعية. **دائرة المعارف الإسلامية**، المجلد التاسع، طهران، ص196 ـ 197. (انظر هامش المؤلف عن المدينة لاحقاً).



سعود، وأن أتحدث، ببعض الكلمات، عن القوم الذين كان يتزعمهم عندما كان الشيخ محمد متوجهاً إليه.

كان ابن سعود رجلاً مسيطراً على كل العواطف الجياشة والمندفعة. ومن خلال تقلبات الحظ، غالباً ما يقوده رجالٌ مغمورون، لكنهم شجعان، إلى أعلى درجات النجاح والمجد. وقد أكسبته شجاعته وفطنته وصفاته الحربية الأخرى، التي أظهرها في مختلف الظروف الخطرة، تقدير وإعجاب عرب قبيلته التي تنتمي إلى قبيلة نجد(*)، وهي القبيلة نفسها التي شهدت ولادة الجد الأكبر للشيخ محمد. وأصبحت، بعد أن وجدت نفسها ضعيفة جداً بسبب الحروب الكثيرة المستمرة دفاعاً ضد جيرانها الطموحين المجبولين على السلب والنهب، بحاجة إلى زعيم قادر على استرجاع حقوقها.

وقد كرّس ابن سعود نفسه لهذه المهمة كلياً. وبعد أن حظي بهذه المكانة الجديدة، أخضعها لسلطته بلا عناء، كما أخضع، بالسهولة نفسها، قبيلتي العتوب والعنزة(**)، وهما قبيلتان يمانيتان

(*) تنتمي عائلة آل سعود إلى بني حنيفة وتلتقي في الجد الأعلى في ربيعة مع عنزة وهي من قبائل نجد [معدّ البحث].

(**) يدرج علم الأنساب عنزة في عداد عرب الشمال، وأنهم من ربيعة. تقول شجرة نسب القبيلة: هو عنزة بن أسعد بن ربيعة. وتبيّن نظرة إلى الجدول الذي وضعه فوستنفيلد أن عنزة أقدم بستة أجيال من بكر وتغلب، الممثلين الرئيسين لربيعة. هكذا يضفي علماء الأنساب طابعاً مشخّصاً على عمر القبيلة. أقرب معلومات متوفّرة لدينا عن القبيلة تعود إلى العصر السابق مباشرة للإسلام. كانت عنزة آنذاك موزّعة على منطقتين، الأولى في الشمال الشرقي على حدود الفرات، والثانية في اليمامة، قلب شبه جزيرة العرب. كانت عنزة الشمال قبائل رحلاً، أما في وسط جزيرة العرب فكان قسم منها على الأقل



مستقراً. ولم يكن للمجموعتين احتكاك سياسي فيما بينهما. كما جرى تاريخهما لاحقاً في دوائر منفصلة أيضاً، فتحوّلت عنزة الشمال إلى أسلاف للقبيلة الحديثة، وذابت عنزة اليمامة في قبائل شرق ووسط جزيرة العرب المستقرين. (**مبرد كامل**، الجزء الأول ص97 .**الأغاني** الجزء الحادي عشر، ص154 **لسان العرب**. فوستنفيلد: **أماكن سكن وترحال القبائل العربية**، ص20. فرايتاغ: أمثلة الجزء الثاني ص17).

كان بنو هزان القبيلة الرئيسة من عنزة في جزيرة العرب، وكانت منطقتهم تقع جنوب المكان الذي يخترق فيه وادي حنيفة جبل طويق، بين واحة الخرج الحالية وحريق (**الهمداني**، ص161. ياقوت: الجزء الرابع، ص417. يتبدّى وضع الأماكن التي سكنوها، وهي المجازة ونعام، من خلال المعطيات حول معوان ووادي برك، والمكانان كلاهما مرسومان على خارطة فيلبي). فيما بعد، يرد ذكر عنزة في مناطق أبعد جنوباً، حيث لا تزال ذكريات حكم قبيلة عنزة حية إلى اليوم في الأفلاج (فيلبي: **قلب الجزيرة العربية**، الجزء الثاني، ص108 بالإنجليزية)، بل إن قرى عنزة وجدت إبان العصر الوسيط حتى وراء منطقة طويق، في عمق الطائف (**ابن الأثير**، الجزء الثاني عشر، ص113. تابع بكري في فهرس فوستنفيلد، ص130)، وقد اندثرت تلك القرى عام 597هـ/1200م بسبب الطاعون، عدا اثنتين منها. أما اليوم فليس هناك أي شخص من عنزة، التي اختفى أبناؤها (الجميلة) مجدداً من الأفلاج، وإن ظلّت بقية منهم في هدّار في أعالي أرض طويق دون غيرها (فيلبي، الجزء الثاني، ص249): في حين هاجر الآخرون إلى الشاطىء الشرقي لجزيرة العرب، وخاصة منهم فرع بني عتبة (العتوب)، الموجود في الكويت وقطر وجزر البحرين، وينتمي إليه البيتان الحاكمان في الكويت والبحرين (محمد بن خليفة النبهان: **التحفة النبهانية في إمارات الجزيرة العربية**، ص70. تابع كذلك **دليل الجزيرة العربية**، الجزء الأول، ص313). بالمقابل، بقي بنو هزان تحت اسم الهزازنة في منطقتهم القديمة، وبالتحديد في واحة حريق (فيلبي: الجزء الثاني، ص286)، حيث يتكرر ذكرهم في الصحائف الوهابية التي تقول إنهم قاتلوا حتى عام 1913م ضد حكّام جزيرة العرب الحاليين (قارن: **عالم** =



واهنتان وبائستان، فبدأ بتوحيدهما، حتى تخلت تلك القبائل الثلاث عن عاداتها القديمة والخاصة واندمجت ببعضها البعض عن طريق التزاوج، لتشكل قبيلة واحدة. وسرعان ما اجتذبت شهرة هذا الزعيم العرب الرُّحل الذين لم يُفصحوا عن أصولهم. وتزايدت أعدادهم كثيراً بعد بانضمامهم إلى هذه الأمة الجديدة، وأصبحوا في حالة تغري على غزو البلاد المجاورة. وبسرعة، أخضعوا القبائل الرحل اليمانية، وقاموا، على مدى خمس عشرة إلى ست عشرة سنة، بغزو عربستان(*)، واستولوا على مناطق الدرعية والإحساء، وابتزوا شعوبها المغلوبة، وأصبحت القبائل العربية تهابهم بعد أن كانت تزدريهم في بادئ الأمر.

المشروع السعودي ـ الوهابي

ظهر زعيم هذه الطائفة القوية، ابن سعود، بسرعة فائقة من وسط بلاد العرب، ووجد في هذه المبادئ ما يرفع من شأنه، واعتنق [الدعوة الجديدة] كما ذكرنا، بعد ظهور الشيخ محمد مجدداً بين ظهرانيهم. وكانت الظروف مؤاتية لكليهما، فاتحدا

= **الإسلام**، الجزء الثاني، ص303. عرف اسم شاعرهم محسن الهزاني من خلال فيتشتاين. ويوجد له قصائد كثيرة في **ديوان وسط الجزيرة العربية** الذي أصدره سوسين ـ شتومّه) المصدر ـ أوبنهايم، **البدو**، ج1، تحقيق ماجد شبّر [معدّ البحث].

(*) يطلق كلمة عربستان على الأرض التي يسكنها العرب وهي كلمة فارسية بمعنى أرض العرب،وهنا أطلق كاتب التقرير عن المنطقة الشرقية اسم عربستان ويجب التميز عن اسم عربستان إيران التي هي الآن تعرف بالأحواز وعاصمتها المحمرة (أو يطلق عليه خرمشهر). [معدّ البحث].



وامتزجت مصالحهما ومشاريعهما المتبادلة، وأصبحا مستعدَين لتبادل الأدوار بعد أن أدركا أهمية المشروع الذي كان يدور في مخيلتهما المتأججة. فابن سعود لا يعيش إلا على الغزوات، وقد شجعته نجاحاته السابقة على شن غزوات لاحقة أخرى. فقد شعر بأنه يستطيع استخدام مبادئ هذا المصلح ذرائع لمهاجمة الأمم الأخرى التي لم تخضع لاستعباده لحد الآن. كما أن قواته الحالية أمدته بوسائل الغزو، وأن أعداداً كبيرة من رعاياه الذين ينتسبون إلى قبيلة الشيخ محمد، التي كانت تناصره منذ مدة طويلة، بدأوا يصفقون لهداية أميرهم. واقتدت بقية القبيلة بابن سعود، وأدرك المصلح خلال مدة قصيرة أن عقيدته قد انتشرت وأصبحت قاعدة عامة لكل الناس.

في هذا العصر بدأت العقيدة الجديدة، التي ترسخت أسسها منذ مدة طويلة، تتسع وتتعزز، واتخذت قبل مدة قصيرة شكلاً محدداً ومنظماً، واتخذ المصلحون اسم الوهابية تيمناً بعبد الوهاب والد المصلح الجديد، وأعلن الشيخ محمد مسؤولية المرشد الأعلى، كما اتخذ ابن سعود لقب الأمير والقائد العام للوهابيين. وهكذا كانت القسمة الطبيعية للسلطة والمملكة والسيادة الروحية والزمنية، وحسن التصرف للمحافظة على ذرية الزعيمين. واختيرت الدرعية[1] عاصمة للإمبراطورية الجديدة. ومن هذا المقر بدأ ابن

(1) تقع هذه المدينة على بعد نحو تسعين فرسخاً شرقي البصرة في البادية، وتشتهر ببيوتها المبنية بالحجر على بعد فرسخ من الإحساء، وعموماً فإن جميع المدن العربية الأخرى مبنية بالطين والقصب. (هامش النسخة الفرنسية، ص133، هامش رقم 1).



سعود يهتمّ جديّاً بتحقيق مشاريعه التوسعية الكبرى. وأسهمت الحياة الصارمة والمزاج القاسي والشجاعة وتعصب عساكره ونهمهم في ازدياد قوته. وكان هو يشاركهم في مختلف الحملات العسكرية الجريئة، وقلل من مؤونتهم ليحافظ على شدتهم بالأعمال والجولات المستمرة، وليعدّهم بطريقة أكثر بساطة، وليعودهم على كل أنواع الحرمان. وأمرهم بركوب الجمال اثنين اثنين بخفّة(*)، وحثّهم على القيام بجولات أكثر بُعداً ومشقة. حينها، أصبح الوهابيون في حال تمكنهم من اجتياز البادية بسرعة وتحمل الجوع والعطش بسهولة ومفاجأة أعدائهم ومهاجمتهم دون استعداد مسبق .

كلمة ابن سعود إلى عساكره

يقول ابن سعود لعساكره:

> أتريدون أن تكونوا أغنى من الآخرين، أقوياء بأسلحتكم ومواقعكم، ترهبكم أمم الأرض؟ فلا تخشون الموت، ويرتجف أمامكم الملوك، فأنتم وحدكم فقط من لا يخاف أحداً. وأضاف الشيخ محمد لهذه الخطبة: إن الله عز وجل يقاتل معكم، ويريد منكم أن تبيدوا كل من يتجاهل عقيدتكم. أطيعوا هذه الأوامر، وستجدون على الأرض

(*) إن أقدم أثر يوضح صورة ركوب البدو للذلول تعود إلى العصر الآشوري أي 800 عام قبل الميلاد، وهي الطريقة نفسها التي استمرّ البدو في استعمالها إلى القرن العشرين وتُسمى الرادوف، أي يمتطي اثنان البعير بطريقة معكوسة حتى يحمي أحدهما الآخر [معدّ البحث].



جزاء أتعابكم ما غنمته أسلحتكم، والسمو والنعيم الأبدي
الذي تحمستم وأعددتم له بمآثركم في طريق الخلاص.

فمن ذا الذي يستطيع أن يقاوم هذه الجيوش المتحمسة، التي تواجه الأخطار والموت بشجاعة أكثر من هؤلاء البشر، والتي تعد المنية أمراً محتماً، فهؤلاء يستعجلون لحظة الخلود الأبدي كما يعتقدون؟!

وفاة ابن سعود وتولي عبد العزيز الزعامة

وسط هذه المبادئ، وبعد إنجاز الجزء الأكبر من مشاريع الغزو، مات ابن سعود ممهداً لابنه الطريق الذي يجب أن يسير عليه تماماً للسيطرة على بلاد العرب، ويُعرف هذا باسم عبد العزيز، الذي لم تنقصه الشجاعة ولا المهارة في الإفادة من استعداد رعاياه، فسار بخطى ثابتة نحو هدفه، وأكمل غزو وإخضاع بقية القبائل التي لا تزال غير مذعنة لسلطة الوهابيين.

شعار الوهابيين العقيدة أو الموت

ليس هناك ما يضاهي طريقة الوهابيين في القتال من حيث السرعة والفاعلية وتبني شعار العقيدة أو الموت؛ وهو الشعار الذي تبناه محمَّد عندما أمسك القرآن بيد والسيف بيد أخرى. فتلك هي اللغة المختصرة الآمرة التي فرضتها هذه الطوائف الجديدة على العرب. وبخلافه، فستفرضها [على الآخرين] كالصاعقة. فعند وصولهم إلى أراضي القبائل التي يريدون القضاء عليها، يتقدم أحد زعمائهم معلناً الشروط التي يجب أن يذعنوا لها، شفوياً، مع



التهديد بإبادتهم إذا ما حاولوا الرفض. وغالباً ما كان هذا المفاوض يحمل أيضاً إحدى رسائل عبد العزيز التي تنص:

> من عبد العزيز إلى قبيلة... السلام عليكم. أمركم الله بالتمسك بالقرآن كما هو واضح، فلا تكونوا ضمن الكفرة، الذين يحرِّفون الكلمَ المقدس عن مواضعه، ويزعمون بأن لله الخالق الأحد شريكاً، وهو أعظم من كل شيء. عودوا إلى أحكامي واهتدوا، أو انتظروا الهلاك بنار النقمة التي أودعتها السماء بين قبضتي لإبادة المشركين.

كانت هذه النبرة المتسلطة مدعومة بجيش مستعد أتمّ الاستعداد لسحق القبيلة، ولا شيء يمنعه من تنفيذ ذلك إطلاقاً. فبدأ البدو، الواحد تلو الآخر، يعتنقون العقيدة الوهابية، حتى شملت عموم مناطق البادية الممتدة بين البحر الأحمر والخليج الفارسي «العربي»، ومن أعماق أرض العرب حتى حلب ودمشق، فلا تجد سوى أتباع ابن عبد الوهاب[1].

استغلَّ عبد العزيز، المعروف بسياسته وحنكته، هذه الغزوات. فكان يسيطر في الميدان على كل قبيلة ينوي إخضاعها عندما تبدي إزاءه بعض المقاومة، دون التعرض للنساء والفتيات التي تصون الوهابية شرفهن دائماً. وكل ما تمتلكه القبيلة من ثروات يصبح غنائم للغزاة. أمَّا إذا أذعنت القبيلة للسلم، فيعين عبد العزيز عليها أحد الحكام، بعد أن يقسم بالقرآن بدفع العشر من ثرواته للعقيدة

---

(1) أصبحت البحرين الآن جزءاً من عرب منطقة مسقط، أقرت بسلطة الوهابية ودفعت لها الجزية. (**النسخة الفرنسية من الكتاب**، ص139، هامش رقم 1).



الجديدة. وهذه الجزية لم تكن تستوفى من القطعان والسلع والأثاث والنقود فحسب، وإنما تشمل الرجال أيضاً، لدرجة أن واحداً من كل عشرة من العرب يضطر دائماً للخدمة في قطعات عبد العزيز مجاناً.

بهذه الإجراءات جمع هذا الأمير العربي، خلال وقت قصير، ثروات هائلة وأصبح سيداً لأمة كبيرة كلها تضم مقاتلين خاضعين لإرادته بشكل أعمى، وهم على استعداد دائم لشن غزوات جديدة عند تلقيهم أول إشارة منه، بحيث أصبح أصغر جيوش الوهابيين يضم دائماً ما بين مئة إلى مئة وعشرين ألف رجلٍ بحسب تقديرات العرب.

القبائل العربية التي اعتنقت الوهابية

والآن أريد أن أقدم مدوّنة بالقبائل العربية التي اعتنقت الوهابية، لاسيما تلك التي لا تزال حتى هذه اللحظة غير مستقرة وبعيدة عن نفوذها الرهيب وظلت مترددة في تبني الأفكار الدينية [للوهابيين] وعاداتهم، ربما بسبب تعلقهم بالعقيدة التي نشأوا عليها، أو بسبب رغبتهم بحياة الراحة السهلة التي اعتادوا عليها تحت السماء الجميلة لبلاد وادي الرافدين وعلى ضفاف نهري دجلة والفرات. ومن بين القبائل الخاضعة للوهابيين:

النجديون الذين يشكلون جزءاً من قبيلة عنزة(*)؛ بنو (شمر)

(*) يتألف سكان نجد من مجموعة كبيرة من القبائل تعرف بالقبائل النجدية ومن هذه القبائل: عنزة - شمر - مطير - دواسر - قحطان - عجمان - عتبان - سبعة - =



جربا(*)، وهم قبيلة كبيرة انفصلت منذ نحو سنة واحدة عن

= فضول ـ تميم وغيرها من القبائل العديدة وكذلك تضمن بعض الحواضر سكان من أصول قبلية وأصول غير قبلية. [معدّ البحث].

(*) إن نعت أفراد قبيلة شمر الجربا بأنهم متوحشون كلام مردود عليه في التقارير الفرنسية ذاتها حيث تولى الشيخ فارس الجربا موقع المستشار لوالي بغداد وقد أغدق التقرير على ذكاء ودراية شيخ الجربا في الشوؤن السياسية والحربية. إن قبيلة شمر الجربا من القبائل الكريمة التي تشتهر بالشهامة والنخوة والكرم فهناك العديد من الرحالة والبحاثون الأوروبيون الذين عاشوا مع شمر الجربا والبدو عموماً وعرفوا معدنهم وخير مثال الباحث والعالم الألماني ماكس فان أوبنهايم. حيث يقول: تنبثق ظاهرة الكرم البدوي من المصدر نفسه الّذي نبعت منه ظاهرة الحماية، ويمكن بطبيعة الحال إرجاع هذه الميزة إلى طبيعة الحفاظ على الذات، حيث إنَّ الصحراء لا تحتوي على فنادق، وعندما يضيف البدو غريباً تاه في الصحراء، أو لجأ لمن يأويه ويطعمه فقد يكون فعل ذلك بدافع الرجاء في أن يعامل بالمثل في ظروف مشابهة قد يمرُّ بها، ولكن الطريقة الَّتي يمارس بها كرم الضيافة اليوم، والَّتي نعرفها من تصوير المؤرخين والشعراء منذ آلاف السنين تتجاوز بكثير القدرَ الضروري من واجب إكرام الضيف، إذ لا يمكن أبداً أن يغادر شخص خيمة البدوي دون أن يقدِّم له الضيافة مهما كان البدوي فقيراً وإن اضطر إلى ذبح آخر شاة يملكها في سبيل إكرامه؛ إذ يسارع صاحب الخيمة إلى الفارس الذي لا يزال على صهوة جواده، ويحاول الأخذ بالرمح واللجام، ويمسك الفارس بقوَّة ليحمله على الترجّل، أمَّا إذا كان الغريب في عجلة من أمره ولا يرغب في النزول في المخيم فعندئذٍ يقدِّم له المضيف لبن الماعز والإبل والمرطبات الأُخرى من كل جانب، وبطريقة فيها كثير من التفاني في خدمته، وقد لا يترك البدوي باباً من الاعتذار إلّا طرقه، ـ خاصَّة عندما يكون صاحبَ شأن مثل رب العائلة أو الشيخ ـ إن لم يستطع أن يقدِّم للضيف أشياء ثمينة، وبخاصة القهوة التي ينبغي عليه أن يشتريها من المدينة.
يتميَّز المظهر الخارجي للبدوي المحترم بكثير من الوقار عندما يستقبل



الوهابيين للتخلص من عناد الزعيم الذي يريد أن يفرض الضريبة التي لم يدفعوها أبداً، فلجأوا إلى حاكم بغداد الذي عبر نهر الفرات ليخضعهم لنفوذه ولتدارك الفوضى التي قد تحدث لأن [قبيلتهم] تضم أكثر من ألفي شخص.

وصف قبيلة (شمر) الجربا

قابلت في رحلتي الأخيرة لبلاد وادي الرافدين الكثير من العوائل الرحل التابعة لقبيلة (شمر) الجربا. وعندما شاهدناهم أدركنا بأنهم قوم قساة، وبالأحرى غير متحضرين(*)، فلا يزالون يحتفظون بطباعهم الوحشية وعاداتهم الريفية الخشنة التي تميزهم

ضيفاً، فبينما يعتني رجاله بمطية الضيف، يستقبل رب البيت ضيفه عند مدخل الخيمة، ويجبره على الجلوس في مقعد الشرف، بينما يسارع من كان جالساً هناك بمغادرة المكان، وعندئذٍ يدرك الضيف أنَّه هنا في منزله، وأنَّه عليه أن يتناول الطعام وينام هناك، ويبقى الضيف المبجَّل في العادة مدة ثلاثة أيَّام عند المضيف المحترم، وتشمل الضيافة فيها رفاق الضيف أيضاً، ومن غريب الأُمور: هذه العادة الَّتي يبدو أنَّها لم تظهر إلَّا في الفترة الأخيرة، والتي تتمثَّل في أنَّه ينبغي على الضيف أن يمرِّر كيس تبغه على الحاضرين، أو يملأ الغلايين القصيرة المصنوعة من الفخار وتُسمَّىَ «سبيل» عندما يرميها إليه الحاضرون حتى يفرغ الكيس، أمَّا إذا أعجب الضيف بأيِّ شيء عند مضيفه فإنَّ العادة تقضي بأن يقدِّم له هذا الشيء كهدية، إلَّا أنَّ المسألة تبقى بطبيعة الحال مجرَّد مجاملة في العادة، ثمَّ إنَّ قبول الهدية بهذه الطريقة دون تقديم مقابل لها يعتبر بدوره أمراً غير لائق وغير مقبول. **رحلة إلى ديار شمر**، ترجمة محمود كبيبو. [معدّ البحث].

(*) إنَّ قِيم الصحراء تختلف عن قيم المدينة، لذا يجب أن ينظر إلى كل مجتمع بمكانه وظروفه. [معدّ البحث].



عن طوائف ابن سعود، وعن القبائل العربية الأخرى. وهؤلاء الرجال غير المتحضرين لا يعرفون الخبز إطلاقاً، وليس لديهم أية فكرة عن الزراعة، ويعتاشون على حليب الناقة فقط.

ويحصلون على كل حاجتهم من كلأ وحيوانات، من الريف. محرومون من المواشي التي تشكل في كل الأماكن الأخرى الثروة الرئيسة للرعاة وسكان البادية. ويتشاركون مع جِمالهم الكثيرة العدد الحزنَ وتعب الحياة غير المجدي والتشرد، ويتحملون معها العطش وأنواعاً أخرى من الحرمان لعدة أيام. وشاهدت لديهم خيولاً جميلة جداً يمتطونها دون سروج ويقودونها بواسطة لجام بسيط. وهناك شيء رائع أيضاً، هو سهولة الانقياد والتناسق الجميل لتلك الخيول. ومن المدهش مهارة قبيلة جربا في تدريب الخيول لجعلها تقوم بحركات دائرية سريعة ومتنوعة ضمن نطاق ضيق جداً من الأرض [خبب].

يحتفظ رجال قبيلة جربا بشعر رؤوسهم بشكل جدائل متدلية على وجوههم ورقبتهم، وتمتزج هذه الجدائل بلحاهم الكثة فتجعل ملامحهم مُنفرة. وبشرتهم شديدة السمرة، ومظهرهم غير محبّب. وعندما يقابلهم الرحّالة يصابون بالدهشة عند اقترابهم منهم.

أما عن ملابسهم فهي ليست أكثر من منديل من القماش [شماغ] يغطي الرأس بطريقة مهملة، وثوب بسيط من القماش القطني، وعباءة فضفاضة سميكة من الصوف الخشن الأسمر التي يستخدمونها كمعطف خارجي يحميهم من ضراوة الطقس. ومع ذلك، شاهدت بعضهم يلبسون سراويل قصيرة من قماش صوفي إرجواني وعصابة ونطاقاً أثناء عودتهم من بغداد.



العرب الآخرون الخاضعون للوهابيين

أمّا العرب الآخرون الخاضعون للوهابيين فهم قبائل المنتفك، وهم قبائل قوية، اعتنق ربع أفرادها الوهابية، والباقون خاضعون لحكومة بغداد، وهم مكلفون بالسهر والدفاع عن البصرة. ومن هؤلاء:

- بنو جويلة(*1).
- بنو ضفير(*2).
- بنو خالد(*3).
- بنو سحيحير.
- بنو صبيح(*4).
- الفدعان(*5).
- الخرصة(*6).
- فدعان الولد(*7).

(*1)وهي قبيلة مكونة من عرب السوالمة وعبد الله والبدور والساجية. [معدّ البحث].

(*2)الضفير [معدّ البحث].

(*3)القبيلة التي حكمت شرق الجزيرة العربية ووسطها قبل بروز نجم آل سعود وشيوخ بني خال هم آل عريعر. [معدّ البحث].

(*4)التي يسميها الآخرون «الحضريين». (من عنزة من الرولة من المرعض). [معدّ البحث].

(*5)وهم من عنزة. [معدّ البحث].

(*6)هناك خرصة شمر وهي عائلة شيوخ الجربا، وهناك الخرصة من الفدعان من عنزة. [معدّ البحث].

(*7)من عنزة ومن الولد عائلة شيوخ بني مهيد. [معدّ البحث].



- فدعان الحسنة[*1].
- بنو الفضول.
- بنو الحفيان.
- القواسم، ويسكنون الضفة الجنوبية من الخليج الفارسي «العربي»[*2].
- بنو السليمانية[*3].
- بنو الموابجة[*4].
- بنو الزكاريط[*5].
- بنو العجاجرة[*6].
- بنو السوقي[*7].
- بنو العمر.
- بنو الشملان[*8].
- بنو الطابخة.

(*1) كلاهما عنزة ولكن فدعان تعود الى ضنا بشر بينما الحسنة تعود الى ضنا مسلم. [معدّ البحث].

(*2) وهم شيوخ الشارقة ورأس الخيمة. [معدّ البحث].

(*3) وهم ولد سليمان من عنزة ويذكر أوبنهايم بأنهم ملتحقون بالفدعان وشيوخهم آل العواجي. [معدّ البحث].

(*4) الموابقة تعود الى السبعة من عنزة وعائلة شيوخها من بني هديب. [معدّ

(*5) تعود الى شمر الأسلم ويسكنون في أطراف مدينة كربلاء. [معدّ البحث].

(*6) من الفدعان من عنزة وعائلة شيوخهم ابن حريميس. [معدّ البحث].

(*7) السوكي. [معدّ البحث].

(*8) من عنزة من العمارات من السلقا وشيوخهم عائلة الرفدي. [معدّ البحث].



- بنو البعيج[*1].

- بنو الشميلان.

- بنو حرب[*2].

- بنو الصغير.

- بنو الجيحون.

- بنو الصباح[*3].

- بنو الزبيد[1].

عقيدة الوهابيين

نقدم الآن موجزاً عن العادات والتقاليد الدينية والمدنية للوهابيين، بعد أن رأينا للتو، أنهم، طبقاً لعقيدتهم، يعترفون بوجود إله واحد جدير بالعبادة والطاعة، ويرفضون كل الديانات الأخرى التي تهدف إلى عبادة المخلوقات، كما يرفضون صفة النبوة لمحمد، ويعدّونه رجلاً حكيماً صالحاً استحق بورعه محبة الله وأصبح منفِّذاً للإرادة الإلهية. وعندما قرروا المجاهرة بالدين

(*1) تعيش القبيلة بجنوب العراق وفي نجد. [معدّ البحث].

(*2) من القبائل التي تنشر بين مكة والمدينة. [معدّ البحث].

(*3) يعود آل صباح إلى العتوب من عنزة. [معدّ البحث].

(1) من بين القبائل التي دونتها، هناك قسم منها فقط اعتنقت الوهابية، وأخرى ذهبت إلى وادي الرافدين تخلصاً من اضطهاد المسيطرين في الشام أو صحراء سوريا الموجودة أسماؤها في مذكرتي (باشوية بغداد) في المادة التي قدمت فيها قائمة بالعرب التابعين لهذه الحكومة في الصفحة 129، (النسخة الفرنسية من الكتاب، ص145، هامش رقم 1).



الإسلامي حذفوا العبارة الأخيرة [من الشهادة] واختصروها بعبارة: لا اله إلا الله، وربما كانوا يدعون إلى إلوهية خالصةً دون تبصر وبتزمت مطلق.

ويلاحظ أيضاً بأن الوهابيين يعترفون بالقرآن كله ويرفضون الأحاديث النبوية والتفاسير الإسلامية باعتبار أن هذا الكتاب أساس للممارسات الدينية، ويلتزمون بكل فروض المحمَّديين (المسلمين)، فيختتنون مثلهم، ويؤدون الصلاة والوضوء والزكاة والصوم في رمضان، ويحتفلون بالأعياد ذاتها، كما يؤدون السجود والركوع مثلهم أيضاً. لكن مساجدهم مجردة من كل مظاهر الزينة ومن القِباب والمنائر، ويتولى أحد الأئمة في ساعات محددة إقامة الصلاة وقراءة بعض آيات القرآن(*)، وعلى كل منهم أن يؤدي فرائضه الدينية دون اسم محمَّد. وفي الحالات المُختلف عليها بينهم وبين غيرهم من المسلمين بخصوص النبي المزعوم، يستخدم الوهابيون الإرهاب مع هذه الطوائف. ويفرضون عليهم مبادئ عقيدتهم بالقوة. وهم أكثر إنسانية مع المسيحيين واليهود، فلم يثبت أن تعرض هؤلاء لأي اضطهاد أو وضعت أمام معتقدهم أية عراقيل حينما كانوا يزورون البلدان الخاضعة للوهابيين.

(*) يشدد أتباع الشيخ عبد الوهاب على ضرورة الصلاة في المساجد والجوامع في أوقاتها الخمس. لم يذكر لنا كاتب التقرير من هو النبي المزعوم. أما بخصوص تعامل أتباع الشيخ عبد الوهاب مع المذاهب الإسلامية الأخرى مثل الشيعة الاثني عشرية والإسماعيلية في نجران والصوفية، فقد كان قاسياً. [معدّ البحث].



عادات الوهابيين، طعامهم، ملابسهم، وبيوتهم

عموماً، فإن الوهابيين يعيشون بزهد شديد، ولا يتعدى قُوتهم الخبز الذي غالباً ما يكون من الشعير والتمر والجراد والسمك، وأحياناً الأرز ولحم الضأن، ولكن بقدر محدود، كما أن القهوة ممنوعة عليهم، وهم لا يعرفون التدخين. وعاداتهم بسيطة وتتطور تبعاً لظروف الحياة، وتسود بينهم المساواة التامة بلا تمييز أو ألقاب تفرّق، معنوياً، بين شخص وآخر. وهم يتعاملون كإخوة فيما بينهم، ويحافظون على ألفتهم الشديدة حتى مع زعيمهم، بيد أنهم ينفذون إرادته بشكل أعمى. ويعدون الحج إلى مكة فريضة أساسية، ويعد تقديس الكعبة الشيء الوحيد الذي يقرونه. وإن احترام ذكرى المشايخ والأئمة يعد في نظرهم انتهاكاً للحرمات، فالواجب يفرض عليهم تهديم كل المساجد التي بناها المسلمون الأتقياء لأوليائهم. وهم يدفنون موتاهم بلا أبهة مأتمية، ويكتفون بتغطية أجسادهم بقليل من التراب. ويعيبون الأمم التي تزين قبور موتاها. وتتسم ملابسهم وأثاثهم بالبساطة، وهم لا يرتدون إلا الأقمشة الصوفية أو القطنية، ويحتقرون الملابس المترفة التي تصنعها الأمم الأخرى. وغالباً ما تستر أجسامهم عباءة بسيطة من القماش السميك، ويسيرون حفاة الأقدام دون الخشية من تقلبات وضراوة الطقس. وبيوتهم مبنية بالقصب والطين، ولا تضمّ أثاثاً داخلها سوى الحصران وأواني الخشب أو الفخار. وهم يتناولون وجباتهم قبل النوم تقريباً على طريقة الرومان القدماء. ويستخدمون جلود الأغنام المشذبة بشكل مستدير بدلاً من الطاولات. وأخيراً، فإن بُنيتهم سليمة وقوية، وهم متعودون منذ الصغر على العمل



الشاق، وحياتهم مفعمة بالنشاط، ويستنشقون الهواء الطلق ويتعرضون لحرارة الشمس، ويمتنعون عن الاحتفاظ بكل ما لا يجدي نفعاً، وهذا يعد اختباراً للتعب وتعبيراً عن الصحة والقوة. ومن صفاتهم الوقار، والزهد، والتعصب والخشونة والكبرياء، وهم يتمسكون بهذه العادات ويحتقرون عادات الشعوب الأخرى، وينظرون بازدراء الى كل ما هو أعلى من مستوى معرفتهم. وقد لوحظت قوة بنيتهم وقناعتهم النادرة، لاسيما في الحملات التي خاضوها، فقد كانوا لا يحمِّلون جِمالهم سوى قربتين مملؤتين، إحداهما بالماء والأخرى بالطحين. وعندما يشتدّ عليهم الجوع يمزجون قليلاً من هذا الطحين في صحن الماء ويبلعونه دون تحضيرات أخرى. وفي حال عدم تيسر الماء، يروون ظمأهم ببول دوابهم. وهم معتادون على كل أنواع الحرمان، وبإمكانهم مقاومة الجوع والعطش لعدة أيام.

صفاتهم العسكرية

أما عن صفاتهم العسكرية، فعلينا أن نأخذ فكرة عن التعصب الذي ألفوه، فهم يواجهون المخاطر والموت بشجاعة فائقة، ولا يعيق اندفاعهم الجريء شيء، ويهاجمون أعداءهم أملاً في الاستشهاد والسلاح في أيديهم.

ولو جمع الوهابيون إلى صفاتهم المادية والمعنوية المعلومات التعبوية والضبط العسكري، الذي لا يزال ينقصهم، لأصبحوا شعباً لا يُقهر، قادراً على إخضاع كل البلاد الآسيوية لحكمه، ولتمكنوا من مهاجمة جميع الأمم الأجنبية بنجاح واستمرار، وليس مهاجمة



القبائل في قلب أراضيهم؛ فمن أجل التوغل للوصول إليهم عليهم أن يجتازوا السهول الجرداء الموحشة والجبال الرهيبة والوديان التي أحرقتها الشمس، والتي تعرّضت للهلاك من شدة الحر والعطش الشديد. فصحاريهم ورمالهم وصخورهم تعدّ حواجز يبدو أن الطبيعة أرادت أن تحيطها بها لتؤمن لهم حريتهم. فضلاً عن ذلك، لاحظت أن أغلب مساكنهم أكواخٌ رديئة وخيام بائسة، وهم مستعدون للتخلي عنها بلا أسف لأعداءٍ أقوى منهم واللجوء الى الأماكن الوعرة المحمية بالرجال الآخرين. فطبيعتهم البسيطة ترتبط بالعادات التي تعودوا عليها في مثل تلك الحالات الحرجة، فتزودهم بوسائل العيش التي لا تكفي غيرهم.

تقسيم الوهابيين إلى ثلاث مراتب

وفي ختام هذه المعلومات القليلة بشأن الأفكار الدينية للوهابيين وعاداتهم وطبائعهم، وجدت أن بالإمكان تقسيم قبيلتهم الكبيرة إلى ثلاث مراتب: الغزاة أو رجال الحرب، والفلاحون، والحرفيون. والواقع أنهم لا ينفرون من الزراعة كما يزعم بعض الرحّالة، وليسوا أقل من بقية سكان البادية في تطوير بعض الحِرف اليدوية، كأعمال الخشب والصوف والقطن وحتى النحاس والحديد. إذ شاهدت نماذج لا تقل عما يقوم به العرب الآخرون، مع أنهم أقل اتصالاً بهؤلاء، ولا يتقربون إلى الأجانب إلا عند الضرورة القصوى، مثل شراء البارود والرصاص والأسلحة والذخيرة الحربية غير الموجودة في بلدهم. فيكتمون، حينذاك، الأمر عن قومهم، لاسيما حينما يشنون هجوماً على بني عقيل والمنتفك ليتفادوا الرهبة التي توقعها قسوتهم بجيرانهم.



النقود المتداولة لدى الوهابيين

النقود الأكثر تداولاً بينهم هي العملة التركية، والسكوين البندقي، والسكوين الهنكاري، والباتاك الإسباني. ولديهم أحياناً نقود نحاسية خاصة قام ابن سعود بسكها؛ ولها عقفتان متشابكتان الواحدة ضمن الأخرى، وتعادل ستة أجزاء من أربعين جزءاً من القرش.

علي باشا يشنّ هجوماً على الوهابيين

كان ذلك في سنة 1801، عندما بدأت قوة الوهابيين تتزايد باستمرار، مسببةً القلق للباب العالي العثماني، الذي كان، حتى ذلك الحين، ينظر إليهم بلا مبالاة، ولا يهتمّ بالتطور السريع في أسلحتهم وعقيدتهم. وعندما أفاق الأتراك من ذهولهم السياسي، قرروا أخيراً وقف هذا السيل المدمر الذي كان يتزداد يوماً بعد يوم، حتى أصبح يهدد تركيا كلها بطوفان وشيك. فما هو العمل والحالة الحرجة هذه؟ بما أنه كان يفتقر إلى وسائل النهوض بالجيش، أصدر أوامره إلى والي بغداد سليمان باشا[1] بالذهاب

(1) قال ياسين العمري في حوادث سنة (1213) المذكورة ما نصه: «أرسل إلى بغداد الوزير سليمان باشا كتخداه الكبير والشهم الخطير علي باشا بالعساكر، فكانوا نحو عشرين ألف فارس، وسار بهم إلى البصرة وجمع العشائر والقبائل، فكانوا ألوفاً وسار بهم إلى مدينة الإحساء وحاصرهم وملكها. وحاربه عبد العزيز المعروف بالوهابي فانتصر علي باشا وانكسر عسكر الوهابي وقتل منهم خلق كثير وعاد علي باشا منصوراً، ثم بعد عودة علي باشا قدم الوهابي وملك الإحساء وقتل من أهلها جماعة وبثّ فيها اعتقاداته الفاسدة». انتهى كلام العمري. **لونكريك**، ص258هـ 36. [المترجم].



لمهاجمتهم بنفسه. فجمع هذا الوزير كل ما يمكن من قطعات وأوكل قيادتها بالكهية علي، الذي أخلفه في المنصب وراح ضحية إحدى المؤامرات. فقد اصطحب الكهية علي كل العرب الذين ظلوا مخلصين لعقيدة وعادات أسلافهم ورفضوا تبني العقيدة الجديدة. وتولى قيادة الحملة زعيمهم محمد بك شاوي زاده. وبسرعة، وخلال أقل من شهرين، كان الجيش الذي يتألف من الأتراك والعرب قد وصل إلى أراضي الإحساء، وهو في حالة وهن شديد بعد مسيرة مضنية عبر الصحراء الرملية الجرداء، والشمس المحرقة، وشحة المياه والمجاعة التي عجزت عن إبادتهم بالكامل. ومع ذلك، فإن هذا الجيش المدمَّر تماماً نشر الرعب حالما وصل المدينة. فقد تمكن الكهية علي باشا من توجيه ضربة ماحقة للأعداء الذين هوجموا في عقر دارهم لأول مرة، بعد أن كانوا هم المهاجمين حتى ذلك الحين، ورأوا عاصمة إمبراطوريتهم [الدرعية] على وشك الانهيار ولا يستطيعون القيام بأية محاولة لإنقاذها إطلاقاً.

الزعيم السعودي يستخدم الدهاء في إنقاذ بلاده

انتهز عبد العزيز الفرصة للهرب، وبعد أن رأى بأن الوقت لا يسمح بالتفكير بجمع جيوشه المبعثرة والعاجزة عن القيام بأية مقاومة، استخدم الدهاء في إنقاذ مجد بلاده ونجح في تقديم رشوة إلى محمد بك شاوي زاده، الذي تمكن، بسهولة، من إقناع الكهية علي بنصائحه ليقلب الأمور فجأة رأساً على عقب ويصبح وسيطاً لاحتواء هذه المعركة. فقد دفع عبد العزيز مبلغاً كبيراً من المال لأحد القادة الأتراك وتمكن من تحقيق السلام بين الطرفين. فتخلى



الكهية علي عن متابعة حملته العسكرية ضد الوهابيين بعد أن كان باستطاعته تدميرهم بعد الرعب الشديد الذي استولى عليهم عند اقترابه منهم، فعاد إلى بغداد، وسرعان ما اكتشف خيانة شاوي زاده وندم على الإصغاء لنصائحه في البداية[1].

وبعد مضي عدة أشهر على هذه الحادثة، كان عبد العزيز متأثراً جداً من هذه المشاريع العدائية، بعد الدرس القوي الذي تلقاه، مشيراً إلى الاستيلاء المفاجئ وغير المتوقع على [كربلاء - مقام] الإمام الحسين، وهو الحدث الذي ذكرت تفاصيله في مذكرتي عن باشوية بغداد. وباختصار، فإن الوهابيين، بعد أن ارتكبوا مجزرة رهيبة وغريبة في هذه المدينة المسكينة، ونهبوا ودمروا المسجد الذي يضمّ ضريح ابن الإمام علي الذي يقدسه الفرس كثيراً، عادوا إلى الدرعية منتصرين، وهم يقودون معهم مئتي بعير محملين بغنائم وثروات هائلة.

رسالة تهديد من فتح علي شاه إلى سليمان باشا

نشر خبر كارثة الإمام الحسين الذعر في بغداد وتوغل إلى داخل البلاط في طهران، فلم يتوانَ عن التحقق في الأمر وإعلان الحداد العام. وكتب فتح علي شاه[2]، الذي كان مدفوعاً بتذمر

---

(1) عندما أصبح الكهية علي والياً على بغداد في بداية هذا العصر كان يخشى هذا الزعيم المتآمر النفعي الذي استغل طيبته بأساليبه الدنيئة. وكما هو معلوم أن هذا الوزير انتقم منه جرّاء خيانته، حيث أعدمه بعد سنوات عدة، عندما اكتشف بأنه يريد خداعه ثانية في حملته التي شرع بتنفيذها ضد يزيدية سنجار. (**النسخة الفرنسية من الكتاب**، ص155، هامش رقم 1).

(2) فتح علي شاه (1791 - 1824م). [المترجم].



وإيعازات الملالي الفرس، من أن الدين يستصرخ الانتقام من انتهاكات الوهابيين، إلى سليمان باشا رسالة مليئة بالعتاب المر، عبّر له فيها عن سخطه من السلوك المتهاون والمستحق العقاب للكهية على ما قام به في حملته على الدرعية، وهدّده بأنه سيتولى بنفسه إرسال جيش عرمرم لإبادة هذه الطائفة الجديدة التي تهدف عقيدتها الى إلحاق ضرر مستمر بالدين الإسلامي. وعبّر وزير بغداد إلى الشاه الفارسي عن عظيم تأثره لما سبّبه له هذا الحدث المشؤوم الذي أصاب المدينة المقدسة، وعزاهُ الى عدم إدراك الأمور والإجراءات، وأضاف بأنه لم يتوقع مثل هذا الهجوم الذي لم يتمكن من تداركه نظراً للسرعة التي تمّ بها، ووعده بالانتباه والحذر من تحركات الوهابيين في المستقبل، والتعامل ضدهم بأقصى حزم. ومع ذلك، لم يكن لهذه التطمينات أي أثر. فقد واظبت هذه الطوائف على مواصلة طريقها الطموح والمتعصب دون عوائق.

ازدياد نفوذ عبد العزيز بعد حادثة كربلاء

كان نفوذ عبد العزيز يتزايد بقوات جديدة يومياً، وأصبح بعد حملته على [مدينة] الإمام الحسين والثروات التي غنمها والقسوة التي يمارسها عساكره، أكثر رهبة تجاه المدن [الأخرى] التي كانت حتى ذلك الحين بمأمن من ضراوته. فنجاحاته جردتها حتى من وسائل الدفاع بسبب الرعب الشديد الذي أصابها، فلم تجرؤ على مقاومته لئلا يكرر ما قام به تجاه [مدينة] الإمام الحسين، وكلها على ما يظهر انقادت للاستسلام للمنتصر الواحدة تلو الأخرى.



الاستيلاء على مكة

لم يبقَ للوهابيين سوى توجيه ضربة واحدة للدين المحمَّدي لزعزعة العروش في آسيا وتتويج عظمتهم بالذات، ألا وهي الاستيلاء على مكة، التي يسميها المسلمون المدينة المقدسة. فامتلاكها يعد أول وأقدس عناوين السلطان الأعظم، فدون هذا اللقب لن يستطع المحافظة على سلطانه بحسب العرف السائد بين الأتراك، وإن فقدان هذه المدينة سيحرمه من أفضل الامتيازات، كالوزير ومسؤول القرابين لبيت الله، الاسم الذي وُصفت به مكة في القرآن. وقد توقف عبد العزيز عن تنفيذ هذا المشروع الكبير الذي يعدّ تنفيذه، استناداً للعقيدة القدرية[1]، مهماً جداً للشرقيين، بوصفه القوة المعبِّرة لإرادة الله ولابد أن يكون مميزاً في عيون المسلمين.

الحالة السياسية في مكة

يبدو أن الوضع السياسي لمكة تتحكم به زمرة تدين بنجاحها للوهابيين. وإليك كيف استغل عبد العزيز ذلك. فبعد أن اغتصب حاكم مكة الشريف غالب[2] منصب الشريف من

(1) القدرية: فلسفة أو مذهب يقول بأن ما يصيب الإنسان مقرر مسبقاً وحتمياً. [المترجم].

(2) ذكر عبد الله فيلبي ما نصه: «في خريف سنة 1790 ظهر في العرب تهديد خطير لاستقرار الدولة الوهابية. فقد كان الشريف غالب بن مساعد الذي أخلف أخاه لدى موته سنة 1788، يعدّ العدّة لغزو نجد، معلناً عزمه على مهاجمة الدرعية نفسها ووضع حدّ للدعوة الوهابية، فأرسل أخاه عبد العزيز على رأس جيش من عشرة آلاف رجل وعشرين مدفعاً. وانضم إليه في الطريق بدو



أخيه عبد المعين(*) الذي كان من حقه بالوراثة منذ ولادته، لجأ الأخير إلى أمير الوهابيين والتمس منه أن يتصرف بشكل فاعل لإعادته إلى منصبه الذي انتزع منه دون وجه حق. وعليه، فقد أُبلغ غالب، برسالة متعجرفة مليئة بالتهديدات، بضرورة التخلي عن هذا اللقب الذي انتحله بالقوة. لكن غالباً أجاب بمكابرة بأنه استحق هذا اللقب بشجاعته وجرأته، وأنه مستعد للدفاع عنه والاحتفاظ به وسيشهر السلاح في يده ضدّ كل من يحاول مخاصمته.

جيوش عبد العزيز تواجه الشريف غالب

ردّاً على هذا التصريح الوقح، قام عبد العزيز بتسيير مئة ألف

الحجاز، وعناصر من شمر ومطير، وقبائل أخرى من نجد. ولدى وصولهم إقليم السر، أحدقوا بقرية (قصر بسام) المحصنة وسحقوها بالمدافع التركية. ولكن حاميتها الصغيرة، التي قيل إنها كانت تتألف من ثلاثين رجلاً، صدت بشجاعة كل هجوم كانوا يشنونه عليها». **تاريخ نجد ودعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب السلفية**، تعريب عمر الديراوي، المكتبة الأهلية، بيروت، ص82. يبدو أن هناك خللاً ما في هذا الهامش فيما يخص عدد الحامية الصغيرة التي لا يتجاوز عددها الثلاثين شخصاً. فكيف يتسنّى لها صدّ هجوم الجيش الذي يتجاوز عدده العشرة آلاف. فلربما هناك مبالغة أو خطأ في عدد المدافعين؟ [المترجم].

(*) عبد المعين ليس أخ الشريف غالب بل هو من أبناء العمومة يلتقي مع الشريف غالب بالجد الثامن محمد أبو نمي، فغالب بن مساعد بن سعيد بن سعد بن زيد بن محسن بن الحسين بن الحسن بن محمد بن نمي، بينما عبد المعين بن عون بن محسن بن الحسين بن الحسن بن عبد الله بن محمد أبو نمي المصدر: **حكام مكة** لـ «دي غوريه»، ص381، دار الوراق 2010. [معدّ البحث].



وهابي تجاه مكة بقيادة ابنه سعود. وكانت المأثرة الأولى لهذا الجيش الهائل الاستيلاء على الطائف ونهبها، وهي مدينة صغيرة تبعد أربعة عشر فرسخاً عن مكة، إذ بدأ الأهالي يتراجفون ويحتاطون، فخاف غالب من أن يؤخذ على حين غرّة، وأن يضطر إلى تحمل الحصار الشديد، فتقدم نحو الأعداء لطرد الحامية التي جاءت للاستيلاء عليها. لكن قواته كانت خائفة جداً من الوهابيين. وبعد أن قاتل أُجبر على التراجع مع بقية قطعاته. في تلك الأثناء، كان عبد الله باشا حاكم دمشق وأمير الحج(*)، أو مسيِّر قوافل الحجيج إلى مكة، في طريقه عائداً إلى هذه المدينة [الطائف] مع قافلة الحجيج المؤمنين. وعندما علم بما حدث بين الوهابيين والشريف، أسرع بإخبار الديوان في القسطنطينية، مجازفاً بمواصلة طريقه دون معرفة طبيعة إجراءات هذه الطوائف بشأنه. وبعد ثلاثة أيام من مغادرته الطائف، دنا منه الأعداء وطالبوه بضريبة المرور المعتادة، وبدت له هذه الرسوم مفرطة وتعجيزية، فرفض مطاليبهم، ووجد أنْ ليس ثمّة وسيلة أخرى سوى الرد بالقوة ومقاتلة الوهابيين، لكنه اضطر إلى الانسحاب بعد أن قتل بضعة مئات من الرجال.

عبد الله باشا يكتب رسالة إلى سعود

أشعلت هذه المعركة، التي كانت مكسباً لأمير الحج، نار الانتقام في قلوب. فبعد هذا العداء، لم يكن من الحكمة الدخول إلى مكة حينما كانت على وشك الوقوع بأيديهم. عندئذ، كتب

(*) هو عبد الله باشا العظيم أمير الحج وحاكم دمشق. [معدّ البحث].



عبد الله باشا إلى سعود [رسالة] ليجسّ نبضه، ولإضفاء بعض الذرائع المحتملة للعمل الذي كلّف حياة الكثير من طوائفهم، متهماً إيّاهم [الوهابيين] بالتحريض على دفع رسوم لم تكن مألوفة من قبل، بالقوة. وفي ختام رسالته، وبعد أن أدرك بأن هذه المقدمات المأساوية لم تسفر عن إجراء عدواني جدّي، طلب من الشيخ أن يعلمه فيما إذا يمكن أن يعدّه صديقاً أو عدواً، وفيما إذا كان بإمكان الحجيج زيارة المدينة المقدسة من غير خوف. فاستقبل سعود، الذي كان قد أعدّ للتو خطته، رسول الوالي استقبالاً لائقاً، وأجابه دون أن يلومه على تصرفه، فقد وجد [سعود] أن المقاومة التي واجهوا بها الوهابيين، الذين أرادوا إقلاقهم، كانت ضرورية جداً، وإن الذين قتلوا نتيجة ذلك يستحقون الموت، وسيُطرد شركاؤهم، وبإمكان القافلة الدخول إلى مكة بكل حرية شريطة أن لا يقيموا فيها أكثر من ثلاثة أيام، وأن يسهر بنفسه على أمن الحجيج، ويمنع كل ما من شأنه أن يعرِّضهم للعنف، وذكر سعود بأن الأمور لم تصل إلى حد مقاتلة المسلمين إطلاقاً، وإنما لمعاقبة غالب على اغتصاب السلطة وطرد الحامية الغازية وإعادة حقوق منصب الشريف لعبد المعين، وأنه سينسحب بعد إنجاز هذه المهمة.

سعود يرفض وساطة عبد الله باشا

وبينما كانت هذه المفاوضات تجري بين زعيمي الفريقين، وكل منهما يتصرف من وجهات نظره الأمنية، شعر غالب بالخطر المحدق به، فجاء للبحث عن عبد الله باشا، ملتمساً منه أن يتوسط بينه وبين سعود، وأن يعقد مصالحةً، إن كان ممكناً، مع



الزعيم المتغطرس الدموي الذي أقسم على قتله. فاستجاب الباشا لإلحاحات غالب، وكتب إكراماً له، وتوسّط لإنهاء النزاع. لكن سعوداً رفض مقترحه وردّ عليه بعبارات قاسية جداً، وطلب منه عدم التدخل في قضية لا ناقة له فيها ولا جمل، والاكتفاء بدخول مكة، شريطة أن لا ينسى بأنه لم يوافق على هذه إلا بشرط صريح وواضح، وهو عدم البقاء أكثر من ثلاثة أيام في هذا المكان. فذهب سعود بنفسه على رأس جيشه بحثاً عن الشريف غالب، غير راضٍ سوى بالظفر برأسه. ولم يلحّ عبد الله باشا، الرجل الحذر، أبداً خوفاً من إثارة سعود، فدخل مكة وخرج منها عند انتهاء المدة المحددة بحسب الاتفاق الذي تمّ بينه وبين سعود. وبعد عدة أيام على مغادرته المدينة مع الشريف غالب[1]، الذي غادر مع الحجيج للتخلص من المصير المأساوي الذي كان ينتظره، تقدم الوهابيون أمام مكة وأصبحوا سادتها دون أية مقاومة تذكر، فضلاً عن أن السكان لم يعد بمقدورهم تحمل العنف الرهيب الذي تتسم به هذه الطوائف عادة. وقد قتل الوهابيون عشرين شيخاً لا لشيء إلا لأنهم أدانوا مذهب الغزاة علناً.

سعود يعيّن عبد المعين شريفاً على مكة

كانت أول اهتمامات سعود إعلان عبد المعين، الذي طلب

---

(1) الشريف هو باشا جدة الذي كان موجوداً في مكة حينذاك، اعتقد بأنه يجب أن يخرج بالطريقة ذاتها واللجوء بسرعة إلى مقره مع الشريف غالب وقاضي مكة الذي كان هو أيضاً يبحث عن النجاة لنفسه، (هامش النسخة الفرنسية من الكتاب، ص164 هـ 1).



حمايته، شريفاً[1] . وبعد أن وطد قواعد مذهبه هدم جميع أماكن الصلاة المقدسة الشامخة داخل المكان وخارجه، ودمر المتاجر والحوانيت التي شيدها الأتراك في أماكن الطواف[2]، والتي تغري على الربح الفاحش، وانتزعوا قطعة النسيج الذهبية الثمينة التي تغطي مقام إبراهيم، واستحوذوا على جميع مظاهر الزينة والترف التي تحويها المدينة.

سعود يتجه نحو جدة والمدينة

لاحظت أثناء مروري بأن الوهابيين يعدّون مكة مدينةً مقدسة، غالباً ما تجلّت فيها القدرة الإلهية من خلال المعجزات والأحداث السماوية الأخرى، مستندين بذلك إلى نصّ القرآن ذاته، ويقدسون الكعبة التي يعتقدون أنها أقدم المعابد التي شادتها أيدي البشر للخالق. ومن هذه الفكرة، فهم يعتقدون بأن عليهم أن لا يرتكبوا

---

(1) كان غالب حينذاك يحاول كسب الوقت في تحصين جدة، فقد تدعو الضرورة لذلك، مع أنه ظل على اتصال بسعود، فاقترح عليه إيجاد تسوية سلمية لخلافاتهما. ولكن سعوداً عيّن عبد المعين بن مساعد شقيق [بل من أبناء العمومة] غالب أميراً على مكة، ومن ثم تقدم إلى جدة أملاً في أن يحتلها بعد هجوم مباغت. إلا أنه وجد التحصينات قوية لدرجة لم يستطع مهاجمتها مباشرة، فقد بنى غالب سوراً حول المدينة وحفر خندقاً واسعاً خارج السور. فعاد سعود أدراجه إلى مكة، وهناك أقام حاميات قوية من الوهابيين في حصونها المختلفة. ثم سار إلى نجد. وكان هذه في أواسط صيف عام 1803 (فيلبي، ص102). [المترجم].

(2) الطواف: هو المكان الأكثر قدسية في مكة، داخل أسوار الكعبة والذي يجب على الحجاج أن يدوروا سبعة أشواط لإكمال شعيرة الحج. (هامش النسخة الفرنسية من الكتاب، ص165، 1) .



سوى القليل من أعمال العنف داخل أسوار مكة. لذا، غادروها الى أماكن اعتيادية أخرى. ولم يبق سعود إلا مدة معينة كان يريد أن يثبت خلالها تفوقه، بعدها ترك عبد المعين في هذه المدينة بعد أن عيّنه شريفاً، فضلاً عن ضابط وحامية مكونة من مئتي عسكري، وخرج نحو جدة. فالوهابيون الذين كانوا غزاة دائماً، أخفقوا في هذه الحملة الجديدة. فهم، لحد الآن، لم يقوموا إلا بمهاجمة القبائل الرحل ومباغتة المدن المكشوفة غير المحصنة. وعندما وجدوا جدة محصنة تحصيناً جيداً وسكانها متحمسون كثيراً لغالب وشريف باشا ومصممون على مقاومتهم إلى آخر حد، فشل مشروعهم أمام هذا الموقع أيضاً، لأنهم لم يكونوا مسلحين سوى برماح بسيطة وبنادق ذات فتائل تنقصها الذخيرة، وإن عدم انضباطهم وجهلهم بمبادئ التكتيكات العسكرية وهجماتهم المتكررة سبّبت لهم أضراراً كبيرة وعرّضتهم للإذلال، فغالباً ما كان المحاصَرون يردّوهم. وسرعان ما ثبطت عزيمتهم وتفشى الطاعون في جيشهم مسبباً الهلاك المرعب لهم. فاضطر سعود لرفع الحصار والانسحاب مع ما تبقى من جيشه إلى الريان. وهناك استغل الإمدادات الجديدة التي تلقاها من الدرعية قبل مدة قصيرة، يحدوه الأمل في إعادة الامور إلى نصابها، فغيّر خطته وتقدم نحو المدينة، وتزعم رجلان من قادته، وهما ابن موديان وابن هايب، بعض الرجال، وكانت قريتا القرين وسيران[1] تقعان في ضواحي هذا المكان، فانتزعاها فوراً. ولكن بعد ذلك خرج أهالي المدينة

(1) وردت في النص بصيغة Seiran، ولسنا متأكدين من لفظها الصحيح. [معدّ البحث].



بسرعة لملاقاة الأعداء، وواصلوا مناوشاتهم حتى طردوهم من هذين الموقعين.

إزاء هذا الفشل الجديد، قرر سعود العودة إلى الدرعية، ولكن قبل أن يأتي أراد شنّ حملة أخيرة ضد المدينة [المنورة] أيضاً، باذلاً جهده للحصول بالحيلة على ما لم يستطع الحصول عليه بالقوة. ومن أجل ذلك، بعث ابن صالح وابن الباز مع جماعة من الوهابيين إلى أهل المدينة لإبلاغهم بالأمر وتنبيههم من قوة جيشه وانتقامه في حال عدم الإذعان. لكن هذا التهديد لم ينجح كالسابق، واستُهزِئ برسالته، فاضطر إلى إنهاء حملته التي نشرت الذعر حتى أبواب القسطنطينية. ولم يبقَ له المجد نفسه ليحافظ على سلطته في مكة، لأن سكان هذه المدينة، بعد أن وجدوه مندحراً من كل الجهات، وانسحب انسحاباً مهيناً، طردوا الحامية التي تركها وأعادوا تنصيب غالب شريفاً للمرة الثانية.

مقتل عبد العزيز ووفاة الشيخ محمد

تركت حملة سعود الفاشلة في عاصمة الوهابيين أثراً سيئاً بالغاً، سرعان ما تبعتها حادثة أخرى أكثر فظاظة وضعت نهاية مأساوية لحياة عبد العزيز والد سعود في الثالث عشر من تشرين الثاني (نوفمبر) سنة 1803 أثناء الصلاة. فقد طعنه شخصٌ فارسي اعتنق الوهابية بهدف الانتقام لمقتل ثلاثة من أبنائه في المجزرة العامة التي حدثت في مدينة الحسين، التي ينتمي إليها هذا الوهابي المزعوم، واعتنق المذهب الجديد ليتمكن من الدخول في خدمة الزعيم. وقد ألقي القبض على القاتل وأحرق حيّاً، مع أن



المسلمين سرّهم أن يعدّوه شهيداً بحسب عقيدتهم، مدّعين بأن اللهب لم يلتهمه. مما اضطرهم [الوهابيين] إلى وضعه بين يدي الجلاد الذي قطع رأسه[1].

كان من المفترض أن تسبب الخسائر التي تكبدها الوهابيون في

---

(1) عن هذه الحادثة ذكر عبد الله فيلبي تفاصيل أخرى، إذ قال: «كان عمر عبد العزيز حينذاك اثنتين وثمانين سنة فحالت شيخوخته دون قيامه بفريضة الحج قبل سنتين. وكان هذا يعود إلى سوء حالته الصحية في أواخر حياته... ولم يكن هناك أمل في حياة أطول له، على الرغم من كل ما فعل. إلا أن الشكل الذي انتهت عليه حياته كان مفجعاً محزناً. فقد كان يصلي كالمعتاد في مكانه المعروف وسط الصف الأول من المصلين في جامع طريف، قلعة الدرعية، في الثاني من أكتوبر/تشرين الأول أو بعد ذلك بيوم أو يومين، عندما هاجمه رجل غريب، أثناء ركوعه للصلاة وكان هذا الرجل درويشاً قبله الأمير في بلاطه وهيأ له الفرصة الكافية لتلقي التعاليم الوهابية، كان يجلس في الصفَ الثالث من صفوف المصلين وراء عبد العزيز مباشرة، فألقى بنفسه عليه وطعنه بمدية اخترقت بطنه من الخلف. وكان عبد الله بن محمد شقيق الإمام، يقوم بأداء الركعة المطلوبة بجانب أخيه، فهاجمه الدرويش أيضاً ولكن عبد الله كان أسرع منه مع أنه أصيب بجرح بليغ، فأهوى على المعتدي بسيفه بينما أسرع آخرون فذبحوه. وحدث اضطراب في الجامع. ولكن سرعان ما ساد الهدوء عندما علم الناس بالحقيقة، فاستدعي سعود من مزرعة نخيل في المشيرفة كان يقضي فيها يومه في الراحة والاستجمام وحمل عبد العزيز الذي كان لا يزال حيّاً وان كان فاقد الوعي، إلى قلعته حيث فارق الحياة بعد ذلك بقليل. ويعتقد بأن القاتل كان يقصد سعوداً بالذات، انتقاماً لما فعله في كربلاء، فقد كان القاتل من سكانها. وقد شهد بأم عينيه ذبح الأبرياء (ومنهم زوجته وأطفاله) فأقسم على الانتقام. وهناك قول آخر وهو أن القاتل كان كردياً من العمادية قرب الموصل، يدعى عثمان، ولم يكن الباعث على القتل معروفاً. وربما كان مدفوعاً استؤجر ليقوم بهذا العمل، إذ كان سنياً ليس له مأرب ديني من عمله». **تاريخ نجد**، ص102 ـ 103. [المترجم].



حملتهم الأخيرة، فضلاً عن مقتل زعيمهم، إخماد جذوة حماسهم وضجرهم من الحياة القاسية المضطربة التي يعيشوها باستمرار، دماراً شاملاً لطائفتهم. ولكن لم يحدث شيء من هذا القبيل؛ إذ أخلف سعود أباه عبد العزيز في انتخابات جماعية للقبيلة، وحافظ كسابقه على الانسجام والخضوع والتعصب الديني والرغبة في الغزوات. أمَّا الشيخ محمد الذي توفي قبل مدة قصيرة، فقد حل محله أكبر أبنائه، حسين الضرير، الذي يحظى بالتقدير ذاته.

عدم تعرّض الوهابيين لأيّة أضرار

الموجز الآتي يثبت، بما يكفي، بأن طائفة الوهابية لم يصبها ضرر حتى هذا اليوم، ولم تتوقف عن نشر الرعب بين السكان المجاورين، واستمرت بعنادها في بناء صرح هيمنتها الشاملة، بعد أن أرست أسسها منذ ستين سنة في وسط الجزيرة العربية.

موجز الرسالة المكتوبة في حلب بتاريخ 12 حزيران (يونيو) 1806

ها هي الآن حالة المشاريع الأخيرة للوهابيين الذين استعادوا قوتهم على أراضي مكة ودمشق:

> كانت قافلة الحجيج أو الزوار تعاني بشدة، خلال هذه السنة، من سطو هذه الطوائف المتعصبة، بعد أن قتلوا بعض أفرادها المسلمين الورعين، وفرضوا على الآخرين ضرائب باهظة، وحطموا المحمل المقدس والخزانة البديعة الصنع المغطاة بستارة خضراء مطرزة تضم الهدايا الثمينة التي يرسلها السلطان الأعظم (الخليفة العثماني) كل سنة



لتوضع فوق ضريح محمد. وعادةً ما يحمل هذه الخزنة جملٌ رائع مسرّج يسير في مقدمة الموكب دائماً، للتذكير بالحصار الذي فُرض على النبي أثناء مسيرته الرسولية والحربية. وقد أدى هذا الحدث إلى نشر الذعر بين الأتراك والتحصن في مدينتنا [حلب] خلال المأساة الأخيرة. وقد اعتبر الناس ذلك الحدث نذير شؤم بزوال المحمَّدية (الإسلام).

ومع كل هذه المعوقات، أدى الحجيج، المفعمون بالحماس، شعائر الحج المطلوبة التي جذبتهم إليها بلاد العرب؛ فدخلوا مكة، لكنهم وجدوا جميع المساجد فيها مهدمة، والمنابر مقلوبة، ومظاهر الاحتفالات الدينية الخارجية ملغاة، وشيوخ الدين مقتولين بأسلحة الغزاة. وبقيت الكعبة وحدها شاخصة وسط الكثير من الصروح المهدمة التي انهارت تحت ضربات التعصب والغضب الأعمى. وأصبح الوهابيون اليوم أسياد مكة والمدينة، ويقال بأنهم استولوا على جدة أيضاً، وإن أهالي هذه المدن الثلاث اعتنقوا عقيدتهم بعد أن سالت دماء عدد كبير من الملالي والشيوخ الذين فضلوا الموت على الارتداد عن عقيدتهم علناً. فضلاً عن ذلك، يعتقد بأنه لن يكون هناك حج في السنة القادمة.

قبل أيام قلائل أوصل لي أحد أصدقائي هنا نسخة من رسالة كتبها مفتي مكة، وهو أحد كبار رجالات البلد، الذي اعتنق الوهابية؛ هذا نصها:

في هذه السنة، توجه الحجيج نحو المكان المقدس، كالعادة، تصحبهم الفوضى والفساد. وعمّت المدن الكثير من الرذائل



المقيتة. بيد أن حشودهم المنتشية تبددت وكبرياؤهم ذل، وصمتت أبواقهم الصاخبة، وتمّ الاستيلاء على مدافعهم، وخسروا نفراً كثيراً. وباختصار، بعد أن أصابهم الهوس والسخط أصبحوا تعساء عاجزين. أمَّا نحن، فبفضل الله، تجاوزنا العقبة وتخلصنا من القناع المزعج الذي كان يضايقنا. وبأن السماء حمتك من الآخرين لتفتح عينيك... لا نريد مزيداً من الافتراضات حتى تكتب لنا بأن موقع حلب الحصين قد سقط بأيدي الوهابيين.

لقد أوضحت هذه الرسالة ما يكفي عن مشاريع الحملات التي كان الوهابيون يحاولون شنّها في هذه الجهات.

اقتحام أسوار مدينة الإمام علي (النجف)

بينما كانت قوة وهابية تتعقب قافلة الحجيج، وقوة أخرى أكثر عدداً أرسلت من الدرعية نحو الزبير والبصرة ومدينة الإمام علي (النجف)، ظهرت مجموعة من قطاع الطرق في السابع والعشرين من نيسان (ابريل) أمام آخر هذه الأماكن، وتحت جنح الظلام تمكنوا من تسلق الأسوار، ورفعوا أعلامهم في الحال فوق الأسوار، وتوغل بعضهم داخل الموقع المحصن. وفجأة، وجّه أحد زعمائهم صرخة إلى رفاقه: «أصدقائي، ها هي اللحظة الحاسمة للتعبير عن شدة إيماننا بعقيدتنا، كوننا المنتقمين لرب السماوات العلا، سامحوا كل من لا ينتهك حرمته». وقد أيقظ هذا الخطاب القصير المعلن بصوت جهوري طليق، الخفراء النائمين المكلفين بحراسة سور مدينة الإمام علي (النجف)، وعمّ القلق وهرع الناس إلى أسلحتهم، وفضّلوا الدفاع بشجاعة على أن يذبحوا بجُبن.



فقاوموا مقاومة عنيفة وقتلوا جميع الوهابيين الذين واجهوهم[1]. وما أن شاهد هؤلاء أن الخطبة لم تُجدِ نفعاً حتى انسحبوا لمسافة معينة من المدينة، وتحصنوا هناك وبقوا تحت الحصار. إلا أن أحد شيوخ العرب المسمى حطاب [خطاب؟]، يتبعه بضعة الرجال، انقضّ عليهم، واضطرهم قصف المدافع، التي أعيتهم نيرانها المستمرة، إلى الابتعاد عن الموقع بعد أن قتل منهم أكثر من ست مئة رجل.

علي باشا يتولى بنفسه قمع الوهابيين

وعندما وصل خبر هجوم الوهابيين إلى بغداد، أمر علي باشا الكهية بالتوجه نحو ساحة المعركة مع ستة مدافع خفيفة، وأمره أن يجمع كل العرب الذين يصادفهم في طريقه والانطلاق بهم سريعاً لإنقاذ [مدينة] الإمام علي. وفي الرابع من مايس (مايو/أيار)، عندما شعر بأن قطاع الطرق بدأوا بالانسحاب لنهب الأقضية المجاورة، تزعّم القطعات المعدة لقمع تهورهم[2].

وعندما علم الوهابيون بخروج الوالي، انسحبوا نحو السماوة،

---

(1) في ربيع سنة 1806 شنّ الوهابيون غارتهم السنوية على شمالي نجد. وكان سكان البلدان من الزبير إلى السماوة مع حلفائهم من القبائل يصدون هجماتهم بكل سهولة. وقد أوشكوا أن ينجحوا في غارتهم المفاجئة على النجف لولا أن عاجلهم النجفيون من السور فكسروهم شر كسرة. لونكريك، **أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث**، ترجمة جعفر الخياط، ص277. [المترجم].

(2) وفي آخر سنة من عهد علي باشا وافت أنباء الهجوم السنوي الوهابي المعتاد، فسار الباشا وعسكر في الحلة، إلا أن الغزاة لم يصلوا في هذه المرة. لونكريك، **أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث**، ترجمة جعفر الخياط، ص277. [المترجم].



وهي مدينة تقع على ضفة نهر الفرات، وهاجموا هذا الموقع ليلاً كالمعتاد؛ إلا أنّهم أخفقوا في محاولتهم هذه أيضاً. فسرعان ما ردّهم عنها قائد الموقع عثمان آغا. وفي اليوم التالي حمل عليهم أحد شيوخ العرب بشدة، يتبعه ثلاث مئة شخص من الخزاعل، وفقدوا في هذه المعركة الأخيرة، بحسب التأكيدات، أكثر من خمس مئة رجل.

بدءاً من هذا العصر لم نعد نسمع شيئاً عن الوهابيين، ونجهل ما حلّ بأولئك الذين توجهوا إلى الزبير والبصرة. لكننا يجب أن لا نتصور بأن الخسائر التي تكبدوها أثنت عزائمهم إلى الحد الذي يجعلهم يتخلون عن جميع حملاتهم اللاحقة، بل على العكس تماماً، إذ إن ذلك زادهم إصراراً.

إن ما ورد عن عادات الوهابيين وتعصبهم وطموحهم لا يدع مجالاً للشك بأن هذه الطائفة، المتعودة على المتاعب، مستعدةٌ للتضحية دوماً من أجل عقيدتها التي تحلّ سفك دماء الأمم الأخرى وتتعطش للغزوات[1]، مما يجعلنا نعتقد بأنهم، بمرور

---

(1) قبل أن يبادر سعود إلى وضع الترتيبات اللازمة للقضاء على الاضطراب، واجهته في الغرب أزمة جديدة. في تشرين الأول (أكتوبر) لسنة 1813، حينما قرر محمد علي باشا أن يترأس محمل الحج ويزور مكة بنفسه. فدخل مكة بالأبهة والفخامة اللازمة لمثل هذه المناسبة الفذة في التاريخ ثم استولى على جميع الحصون ووضع فيها وفي المراكز القوية الأخرى حاميات من جنده. ووقف غالب أمام هذا الرجل العظيم بكل ذلة مقدماً فروض الطاعة والولاء فضلاً عن الهدايا الثمينة. فاستقبله محمد علي باشا بحفاوة وتقدير، وقدم إليه بعض الهدايا شاكراً له خدماته الجلّة. إلا أنه عاد وألقى القبض على غالب، احتياطاً منه للطوارئ وحفظاً للأمن والنظام. ثم طرد عائلته من قلعة أجياد =



الوقت، وبسلاح المدفعية الذي لن يتأخروا في الحصول عليه، سينجحون أخيراً في فرض هيمنتهم على الإقليمين العظيمين سورية ووادي الرافدين، والتي تعدّ كلّاً من بغداد، البصرة، الموصل، حلب، ودمشق من مدنهما الرئيسة، التي مهما تحصنت لن تصمد طويلاً إزاء هذا السيل المدمر، وليس هناك سوى الوهابيين من يستطيع إزالة هذه المواقع من خلال إجراءات الحصار الفاعلة، بدلاً من الاقتصار على نهب القرى المجاورة وتدمير الحقول وسلب القوافل. وأخيراً، فإن قطع وسائل اتصال هذه المدن مع الخارج لزرع الرعب فيها، إلى جانب المجاعة الشديدة التي ستعرضهم للهلاك بسهولة، سيكون أسهل عندهم من طلب المساعدات العاجلة من الباب العالي الذي لم تعد لديه القدرة على إخماد جراثيم التمرد التي تسربت إلى مركز نفوذه.

موجز الرسالة الثانية الصادرة من حلب والمؤرخة في 14 آذار (مارس) 1807

أود أن أوافيكم بأخبار الفاجعة الكبرى التي حدثت للحجيج، فبعد أن غادروا دمشق في طريقهم إلى مكة

= المشرفة على الحرم الشريف وسجن ولديه وصادر أمواله الطائلة. كما عين مكانه أخاه سرور بن يحيى بن سرور أميراً على مكة. وفي الوقت ذاته نقل غالباً وولديه، عبد الله وحسين، إلى مصر تحت الحراسة المشددة. وأصدر السلطان بعدئذ أمراً يقضي بنقلهم إلى سالونيك، حيث مكثوا في معتقلهم مكرمين معززين، يقدم إليهم ما يحتاجون إليه، ويتقاضون مرتبات كافية مع إعادة ما صودر من أملاكهم. وكتب على غالب أن يقضي بقية عمره هناك حيث توفي بمرض الطاعون سنة 1816. عبد الله فيلبي، ص117. [المترجم].



وعلى رأسهم، كالمعتاد، عبد الله باشا (العظم)، أوقفهم الوهابيون وسط الطريق وتعرضوا لمضايقات جديدة. وخلال السنة الماضية كانت هذه الطوائف قد أملت على الباشا الشروط القاسية التي مُنعت بموجبها القافلة التي كان يقودها من القيام بأي مظهر من مظاهر الأبهة غير المجدية، وأبلغوه بالتوقف عن مواصلة المسير، والعودة بجميع القافلة، وهددوه بنهبها كلها إذا ما أبدى أدنى مقاومة. فأراد عبد الله باشا الاتفاق معهم، لكنهم لم يصغوا إليه. وبينما كان متردداً في الإذعان لمطلبهم، وجد نفسه مطوقاً بالوهابيين فجأة. وبعد أن نُهب الحجيج وعوملوا معاملة سيئة وقُتل عدد كبير منهم، اضطر للتقهقر أخيراً والعودة إلى دمشق، فقد وجد أن عليه أن ينتهز الفرصة باتخاذ هذا القرار المناسب.

موجز الرسالة الثالثة الصادرة من بغداد والمؤرخة في 8 تموز (يوليو) 1807

منذ التفاصيل الأخيرة التي نقلتها إليكم بخصوص الشؤون السياسية لهذا البلد، لم يحدث ما يستحق اهتمامكم، باستثناء الإشارة التي وردتنا عن الظهور المفاجئ لحملة مسلحة للوهابيين على ضفاف نهر الفرات، بهدف قطع الطريق على القافلة المتأهبة للسفر باتجاه حلب إثر تلقيها أمراً من الحكومة بتأجيل مغادرتها. وقد استعدّ الكهية للتصدي لهم مع ثلاثة آلاف أو أربعة آلاف من عرب عانة، وهي مدينة تقع على النهر ذاته وتبعد عدة فراسخ عن بغداد لرد هذه الطوائف في حال اقترابها. ويقال بأن



الوالي نفسه غادر موقعه على الفور، وذهب ليسيطر على طرقات [مشهد ـ النجف] مدينة الإمام علي، الذي يُعتقد بأنه مهدد بالنهب قريباً.

وإتجهت الحملة الثانية للوهابيين، المهمة جداً، إلى مسافة أبعد بكثير، باتجاه الدير، وهو مكان يقع على نهر الفرات أيضاً، على بعد خمسة أيام من حلب. ويؤكد الفارّون، الذين وصلوا إلى هذه المناطق قبل مدة قصيرة، بأن هدف قطاع الطرق هؤلاء بناء قلعة لاستقبال الحامية العسكرية، وقد انتهوا للتو من جمع المواد الضرورية لذلك. وهذا دليل واضح على خطة الوهابيين بالدخول إلى بلاد وادي الرافدين، التي لم يتمكنوا من التوغل فيها حتى الآن. فإذا ما تمكنوا من وضع أقدامهم مرة واحدة فإن جميع جيوش الباب العالي مجتمعة قد لا تستطيع طردهم.

موجز الرسالة الرابعة المؤرخة في بغداد المؤرخة في 30 تموز (يوليو) 1807

علمنا من مصادر موثوقة بالحدث المؤلم بنهب مدينة عانة(*) الذي نفذته مجموعة مسلحة، اشترك فيها الوهابيون وقبيلة العبيد بقيادة لطوف بك، ابن (محمد) الشاوي زاده الذي أعدمه علي باشا قبل سنوات عدة.

(*) مدينة عانة وتكتب «عنة» تقع على ضفاف نهر الفرات في شمال غرب العراق تبعد عن بغداد بحدود 300 كلم تقريباً. إن تعاون العبيد مع الوهابيين في الهجوم على عانة تعدّ نقطة مهمة يجدر دراستها بشكل موسع. [معدّ البحث].



وكانت القسوة التي ارتكبها هؤلاء تجاه [سكان] هذه المدينة فظيعة جداً، ذكّرتهم بالمجزرة الرهيبة التي سبق أن ارتكبها قطاع الطرق هؤلاء سنة 1801، في مدينة الإمام الحسين (كربلاء). فبعد أن أشعلوا فيها النيران وقتلوا معظم سكانها، انسحبوا بسرعة محملين بالغنائم وساقوا معهم أعداداً كبيرة من النساء والأطفال عبيداً.

ولم يتمكن الكهية الذي توجه إلى عانة على رأس ثلاثة أو أربعة آلاف من العرب من إنقاذ هذه المدينة من السطو. وقال بأنه سيعود حالما تصله تعزيزات، وتوجه لإنقاذ الحلة والأماكن الأخرى المجاورة التي تواجه التهديد ذاته[1].

---

(1) نجد في رحلة إلى بلاد فارس لـ أم. أي دي. سكوت وارنك (M. Ed. Scott Waring) في الفصل: جولة في شيراز عبر طريق خراسان وفيروز آباد المنشورة في لندن سنة 1807. فصل طويل عن تاريخ وعقيدة الوهابية. إذ إن الوقائع لم تعرض تماماً بالطريقة نفسها التي قرأناها. وكنت أود أن ألحق هذا الفصل من رحلة وارنك هنا، بدلاً من أن يعطيني السيد لانكليه (M. Langlles) ترجمة للرحلة نفسها. ليتمكن القارئ من الاسترشاد بتلك الملاحظات عن الوهابية. وقد نشرت في المجلة الموسوعية (Magasin Encyclopedique) للسنة الماضية، الجزء الرابع، ص35 وما بعدها. (هامش رقم 1 من النسخة الفرنسية، ص182) السنة العاشرة هي السنة العاشرة من عمر الثورة الفرنسية.



فهرس الأعلام





مكتبة
الفكر الجديد


مكتبة
الفكر الجديد



مكتبة
الفكر الجديد

فهرس الأماكن والبلدان





مكتبة
الفكر الجديد



مكتبة
الفكر الجديد


مكتبة
الفكر الجديد

فهرس الشعوب والقبائل والجماعات




مكتبة
الفكر الجديد

(ف)

(ق)

(ك)

(م)

(ن)

(هـ)

(و)

(ي)




مكتبة
الفكر الجديد


مكتبة
الفكر الجديد

هذا الكتاب

تُعدّ حركة أو دعوة الشيخ محمد عبد الوهاب من أهم الحركات الدينية والسياسية والتي ظهرت في المنطقة العربية خلال 300 سنة الماضية، والتي غيّرت مجرى تاريخ المنطقة العربية بل تعدّتها إلى المناطق الإسلامية الأخرى.

لقد نشأ عن هذه الحركة تفاعلات وأحداث اجتماعية واقتصادية وسياسية منها:

أولاً: قيام الدولة السعودية.

ثانياً: انزياحات إسكانية وهجرات قبلية كبيرة.

ثالثاً: صراعات سياسية واقتصادية.

رابعاً: انتشار التأثيرات الدينية.

أما تأثير أفكار الشيخ محمد عبد الوهاب فكانت كبيرة حيث انتشر هذا الفكر الوهابي وترسخ في الجزيرة العربية بشكل أساسي، وثم حدث تطور كبير في انتشار أفكار الشيخ عبد الوهاب في المنطقة العربية والعالم الإسلامي خلال الستين سنة الماضية.

من المهم جداً أن يحيط الباحث نفسه بجميع المصادر التاريخية من فرنسية وبريطانية وعثمانية وعربية لكي تكتمل الصور في فهم التطورات التاريخية التي حدثت، يمكن أن يرى الباحث أن التقارير الفرنسية المترجمة تحمل وصفاً وتعابير بعيدة عن الموضوعية، ولكن لا يعني ذلك إهمالها بل نختلف مع الوصف ولكن لا يمكن نفي الحدث الذي وقع.

ISBN 978-9933-521-31-8
9 789933 521318



